الدراسات الصوتيَّة اللُّغويَّة عند العرب

د. سالم مبارك محمد بن عبيدالله - أستاذ النحو والصرف المساعد

جامعة حضرموت- كلية التربية/ المهرة

اليمن – المهرة – الغيضة – البريدي الإلكتروني

salim5135@gmail.com **هاتف** : (٧٧١٥٥٩٧٤٧).

ملخص

تحاول هذهِ الدراسةُ أنْ تُجَلِّي الدرسَ الصوتيّ اللُّغويّ عندَ العربِ، مِنْ خلالِ دراسةِ جهودِ بعض علماءِ العربيَّة القدماء، وجهود بعض علماءِ الفلسفةِ والطبِّ والحكمةِ، وجهود بعض علماءِ القراءاتِ والتجويدِ، فهم أوَّلُ من اهتمَّ به، وَدَرَسَه؛ حِرْصًا منهم على الحفاظِ على لسانِهم العربي المبينِ، لاسيَّما بعدَ انتشارِ اللَّحْنِ على مستوياتٍ متعدِّدةٍ، فعَمَدَوا على دراسةِ أصواتِ لغتهم ومفرداتِها، ووصْفِ تراكيبها، وألَّفُوا في ذلك كُتبًا لضبْطِها وروايتِها، ووضعوا القواعدَ التي تَصِفُ هذا اللِّسانَ وصْفًا مُحكمًا ودقيقًا. ولذلكَ كانَ لهم فَضْلُ السَّبْقِ في الوقوفِ على كثيرٍ من الظواهرِ الصوتيَّةِ والصرفيَّةِ والنَّحْويَّةِ التي أفادت المحدثينَ إفادةً كثيرةً، ولاسيَّما الغَرْب، فَقَدْ سَبَقَت الأمَّةُ العربيَّةُ غَيْرَها مِن الأُمَمِ في التقْعِيدِ اللِّسانيِّ بِمسْتَوَيَاتِهِ الصوتيَّةِ والصرفيَّةِ والنَّحْويَّةِ والدِّلاليَّةِ.

This research tries to illustrate the phonological linguistic learning by Arabs through studying the endeavors of some old Arabic language scholars as well as the efforts made by some scholars of philosophy and medicine and those made by scholars of recitatios an intonation. They were the first to be interested in it. They studied it for they were keen of preserving the clarity of their Arabic mother tongue that was particularly vulnerable to confusion and ambiguity because of the phonological and grammatical errors which were largely spread at many levels. Consequently, they began to study the phonology and the morphology of their mother tongue as well as the description of its structure. They composed a lot of books for this objective. Thus, they put the accurate rules to control and describe this language perfectly. So, they were the first to observe a lot of such phonological, morphological and grammatical phenomena of which the modern linguists, especially those of the west, got benefit. The Arab nation was the first to put linguistic basics at different levels: phonological, morphological, syntactic and semantic.

المقدِّمة

إنَّ الناظر في موضوعات الدراسة الصوتيَّة اللُّغويَّة عند العرب، وفي علم الأصوات الحديث والقضايا التي تستأثر باهتمام المتخصِّصين، يتبيَّن له أنَّ بينهما قدرًا كبيرًا من التشابه والاشتراك في بحث موضوعات واحدة، فهي ليست جديدة أو طارئة على حقل البحث اللغوي، بل هي دراسات ضاربة الجذور في عمقه، وما من شك أنَّ علماء اللغة المحدثين قد أثْروا الدراسات الصوتية ثراءً واسعًا وملموسًا، وقد ساعد هؤلاء العلماء على ثرائهم هذا التقدُّم العلمي المتمثِّل بـ(التكنولوجيا) الحديثة المتطوِّرة فأغنوا الدراسة الصوتية بشقيها: الفونيتكس[١] (Phonetics)، وعلم الأصوات الفونولوجيا[٢] (Phonology)، أو علم وظائف الأصوات. وذلك من خلال الدراسات والبحوث والمقالات، وساهموا مساهمةً فاعلة حتى وصل هذا العلم إلى ما وصل إليه، وهذا لا يعني أنَّ علماء اللغة العربيَّة القدماء قد تجاهلوا هذا العلم وأغفلوه. فالدراسات الصوتيَّة ليست وليدة عصر علماء اللغة المحدثين، وإنَّما قد أثارت قديمًا اهتمام علماء اللغة من الشعوب المختلفة، كاليونان والرومان والهنود، بالإضافة إلى علماء العربيَّة الذين اهتموا بهذه الدراسة على اختلاف مستوياتهم وتنوُّع اهتماماتهم.

مشكلة البحث:

يرى كثير من الدارسين اليوم أنَّ علم الأصوات علم حديث، فزعموا أنَّه نشأ على يد علماء الغرب، وطوَّروه ووصلوا به إلى هذه المرحلة المتقدِّمة، وما من شكٍّ في أنَّ لهم دور كبير في ما وصل إليه هذا العلم من تطوّر اليوم، ولكن من يتتبَّع ما سطره علماء العرب القدماء يرى أنَّ لهم السبق في نشأة هذا العلم، وهذا الذي يجهله كثير من الدارسين اليوم، الذين لا يتمتّعون بثقافة كافية عن تراثهم وحضارتهم، فلدى الكثير منه فهم محدود ومعلومات قاصرة وخبرة غضَّة؛ حيث لم يطِّلعوا على ما وضعه علماء العرب القدماء في هذا الجانب، وربَّما قرأوا التراث العربي قراءة سطحيَّة، غايتها الاطلاع السريع، فلم يقرأوه قراءة بحث واستيعاب، فكان من السهل تأثرهم بما رأوه اليوم من تطوّر كبير في هذا العلم. فلو أنَّهم اطَّلعوا بجدٍّ وإخلاص على تراثنا، لكانت لديهم خبرة وافية به، ولما وصلوا إلى هذا الفهم المغلوط؛ لذا أحببت أن أتتبَّع هذه الجهود الصوتيَّة التي قام به علماؤنا القدماء، ليتبيَّن سبقهم، ودورهم البارز. وأرى أنَّ هذا من واجبي في تصحيح كثير من المفاهيم المغلوطة التي نتجت عن بعدنا من تراثنا، وعدم معرفتنا به. ولا أدَّعي أنَّ لي السبق في تجلية هذه الظاهرة، بل سبقني لهذا كثير من الباحثين وعلى رأسهم غانم قدوري الحمد، وكان لهم دور واضح في ذلك، ولكن أرى أنَّ هذه المسألة ما زالت بحاجة إلى تَجْلِيَة أكثر، فكلّ ما ورد كانت دراسات عابرة تكلَّمَتْ عن هذا الموضوع بشكل عارض، فأحببت أن أجمع ما كتب عن ذلك، ثمَّ أحلِّل تلك الآراء وأناقشها، متتبّعا في ذلك المنهج الوصفي الاستقرائي التحليلي، مستفيدًا منها

---

(١) الفونيتكس: مصطلح يختص بدراسة الأصوات المنطوقة بالفعل في الكلام، فيُنظر في حركة أعضاء النطق وأوضاعها، كما يلاحظ الذبذبات الهوائية الناتجة مباشرةً عن هذه الحركات والأوضاع.

(٢) الفونولوجيا: مصطلح يختص بدراسة الفونيمات (الوحدات الصوتية)، وهي العناصر المكونة للمعنى اللغوي، وهي عناصر غير مادية، إنها عناصر عقلية، ويكون تحقيقها المادي بوساطة الصوت الفعلي أو النطق. أما مدرسة (براغ) فقد عدَّت الفونيتكس: علماً طبيعياً يستخدم وسائل آلية، وعدَّت (الفونولوجيا) علماً لغوياً. يُنظر: تفصيل المصطلحين في: علم اللغة العام (الأصوات)، د.كمال بشر/٣٦، دار المعارف بمصر، ١٩٧٣م، وعلم اللغة مقدمة للقارئ العربي، د. محمد السعران، دار النهضة العربية، بيروت /٢٠٠.

في بحثي هذا، وعملت على تتبّع تاريخ الدراسات الصوتيَّة اللُّغويَّة عند العرب من خلال ثلاث مراحل: مرحلة الدرس الصوتي عند علماء العربيَّة القدماء، ومرحلة الدرس الصوتي عند علماء الفلسفة والطب والحكمة، ومرحلة الدرس الصوتي عند علماء القراءات والتجويد.

التمهيد:

كان للعرب دور بارز في الدراسات الصوتيَّة فقد خطَوا بها خطواتٍ واسعةً، وضربوا فيها بسهمٍ وافرٍ، شهد بذلك المنصفون من الدارسين الغربيين أنفسهم، حتى قال المستشرق الألمانيّ "برغشتراسر": ((لم يَسْبقْ الأوربيِّين في هذا العلم إلاَّ قومان العرب والهنود))[١]، ويؤيد ذلك قول فيرث الإنكليزي: ((إنَّ علم الأصوات قد نما وشبّ في خدمة لغتين مقدستين هما السنسكريتية والعربية))[٢]، وقد أشاد المستشرق الألماني أرتور شاده بجهود سيبويه في علم الأصوات؛ حيث وصف هذه الجهود بأنَّها قد وصلت الغاية، وتعدُّ كذلك مفخرًا من أعظم مفاخر العرب[٣]. ويقول الأستاذ (كاردنر . W. H.T. cairdener) : لقد سبق العلماء العرب الأصواتيين المحدثين في تصنيف الأصوات حيث أشاروا إلى الأصوات الأسنانيَّة والحنكيَّة واللهويَّة واللثويَّة من الصوامت، وقدَّموا ملاحظاتهم المضبوطة عن المواقع الدقيقة للّسان والحنك متمثلة بأصوات متعدِّدة ... وسلَّموا بصحَّة اندراجها تحت فصيلتين هما المجهورة والمهموسة، وللعرب معرفة كبيرة بالتقسيم الثاني الأساسي للأصوات الصحيحة، حيث يسمّون القسم الأوّل حروف الشدَّة، ويقصدون به الأصوات الصحيحة المشددة أو المتوترة. أمَّا القسم الثاني فيسمُّونه حروف الرخاوة، ويقصدون به الأصوات المرتخية[٤].

إنّ الأوائل من علماء العربيَّة قد مهَّدوا بين يدي الأوروبيِّين جادَّة البحث المنظَّم في استكناه الصوت اللغوي، وأسهموا إسهامًا حقيقيًّا في إرساء ركائزه الأولى، إذْ أتاح لهم فرصة الاستقرار المبكِّر لحقيقة الأصوات اللغويَّة، ممَّا سجَّل للعرب في لغة القرآن أسبقيَّة الكشف العلمي، والتوصُّل إلى النتائج التي توصَّل لها علماء الأصوات المحدثين، بعد المرور بتجربة المعادلات الكاشفة، والأجهزة الفيزولوجيَّة المتطوِّرة التي أكدت صحَّة المعلومات الهائلة التي ابتكرها العرب في هذا الميدان. ومصطلح علم الأصوات مصطلح عربيّ أصيل، وقد استُعْمِل مدلولاته في الاصطلاح الصوتي بكلِّ دقَّة عند

---

(١) يُنظر: التطوُّر النحوي للغة العربيَّة، برجشتراسر، أخرجه د.رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ودار الرفاعي بالرياض ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م /٤٦، محاضرات في علم الأصوات، د. والي دادة عبدالحكيم، الجمهوريَّة الجزائريَّة الديمقراطيَّة الشعبيَّة، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة والأدب العربي، ٢٠١٤–٢٠١٥م /٢٣.

(٢) البحث اللغوي عند العرب، د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط٤، ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م /١٠١، ويُنظر: علم الأصوات عند العرب، محاضرة للدكتور محمد حسان الطيان، رئيس مقررات اللغة العربية بالجامعة العربية المفتوحة بالكويت، نشرت في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مجلد ٦٩ الجزء ٤، تشرين الأول ١٩٩٤م /١.

(٣) ينظر: محاضرة له بعنوان: "علم الأصوات عند سيبويه وعندنا"، نقلاً عن مقدمة كتاب ما ذكره الكوفيون عن الإدغام /٣٨.

(٤) يُنظر: cairdener | The phonetics of Arbic | p. 13 – 16 باختصار وتصرف ، والصوت اللغوي في القرآن / ١٨.

العرب القدماء، يقول ابن جني (ت: ٣٩٢ هـ): ((ولكنَّ هذا القبيل من هذا العلم؛ أعني (علم الأصوات) والحروف، له تعلُّق ومشاركة للموسيقي، لما فيه من صنعة الأصوات والنغم))[١].

فهو لا ينص عليه فحسب حتى يربطه بالإيقاع الموسيقي والنغم الصوتي، وكلاهما منه على وجه، ولا أحسب أن هذه التسمية الصريحة بهذه الدلالة الاصطلاحيَّة الناصعة قد سُبِقَ إليها ابن جنِّي من قبل، فهو مبتدعها، وهو مؤسس مصطلحها المسمى: (phonemics)[٢].

وهذه جهود جديرة بالاهتمام، والدراسة المتأنيَّة لتطويرها والارتقاء بها. ولقد اعتمد علماء التجويد والقراءات والعربيَّة الأوائل على الملاحظة الذاتيَّة والتجربة الشخصيَّة في دراسة الأصوات، ولا تزال هذه الوسيلة من الوسائل المهمَّة في الدرس الصوتيِّ الحديث، لكنَّ التقدُّم العلميِّ قد وضع في أيدي علماء الصوت وسائل جديدة تعتمد على الأجهزة الحديثة، فقد تمكَّنوا من خلالها من إحراز تقدُّم كبير في فهم الصوت اللغويّ والكشف عن أسراره، ولا يستغني المشتغلون بعلم التجويد وتعليم قراءة القرآن من الاستفادة من هذه الوسائل الحديثة، إذا ما توفَّرت المستلزمات الضروريَّة لذلك.

ولم يغِب علم الأصوات عن مُصنَّفات المتقدِّمين من علماء العربيَّةِ، مع أنَّه لم يُعرف بهذا الاسم عندهم إلاّ في مرحلةٍ لاحقة، فقد مازجَ هذه العلوم المختلفة وداخَلَها حتى لا تكادُ تقع على كتابٍ فيها يخلُوْ من كلامٍ في علم الأصوات أو أثارةٍ منه، وقد قال أبو نصر الفارابيّ: إنَّ عِلم قوانينِ الألفاظِ المفردة يفحصُ أولاً في الحروف المعجمة عن عددها، ومِن أين خرجَ كلُّ واحدٍ منها في آلات التصويت، وعن المصوِّت منها وغير المصوِّت، وعمَّا يتركَّب منها في اللسان وعمّا لا يتركّب[٣].

وعلمُ الأصوات هو علم جديدٌ قديم. فهو علم جديد؛ لأنَّه أحد فروع علم اللسانيات، الذي أسَّسه اللغويِّ السويسريِّ فرديناند دوسوسير (١٨٥٧م – ١٩١٣م) مطلعَ هذا القرن، فهو أوَّل من عدَّ اللسانيات فرعًا من علم أشمل يدرس الإشارات الصوتيَّة، وهو صاحب اقتراح تسميته "semiology"، ويعرف حاليًا بالسيميوتيك أو علم الإشارات الصوتيَّة[٤]. وهو علمٌ قديمٌ عند العرب؛ فهو أحد العلوم التي ظهرت في القرن الثاني للهجرة على يد الخليل بن أحمد الفراهيدي، لأنَّه واحد من العلوم التي تقوم عليها كلُّ لغة، فاللغة أصواتٌ تتألف منها كلماتٌ تنظم في جمل فتؤدِّي معاني شتّى، أو هي على حدِّ تعبيرِ ابن جنِّي: ((أصوات يعبِّرُ بها كلُّ قومٍ عن أغراضهم))[٥]، والصوت كما عرَّفه الجاحظ: أنَّه ((آلة اللفظ، والجوهرُ الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف، ولن تكُونَ حركاتُ اللسان لفظًا ولا كلامًا موزونًا ولا منثورًا إلاّ بظهور الصوت،

---

(١) يُنظر: سرصناعة الاعراب ١|١٠ .

(٢) يُنظر: الصوت اللغوي في القرآن، محمّد حسين علي الصّغير، دار المورخ العربي، بيروت . لبنان /١٧ – ١٨.

(٣) يُنظر: ريادة العرب المسلمين في علم الأصوات، بحث شارك به الكاتب في المؤتمر الثامن والعشرين لتاريخ العلوم عند العرب الذي انعقد في معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب (٢٥-٢٧ حزيران ٢٠٠٧م) /١.

(٤) يُنظر: مدخل إلى الألسنية، د. يوسف غازي، منشورات العالم العربيَّة الجامعيَّة، دمشق، ط١، ١٩٨٥م /٣٠ – ٣١، وعلم الأصوات العام /١٠، ومقدّمة ترجمة كتاب "محاضرات في الألسنية العامة" /٣.

(٥) الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت: ٣٩٢هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٤، د.ت. ٣٤/١.

ولا تكون الحروف كلامًا إلاَّ بالتقطيع والتأليف))[١]؛ لذا عُني أصحاب كلّ لغة بأصواتها منذ أقدم العصور، من ذلك ما أُثِر عن قدماء اليونان، كأفلاطون وأرسطو من ملاحظاتٍ صوتيَّة متناثرة، وكذا ما ورد عن قدماء الرومان أمثال بريسكيان وترنتيانوس. أمَّا الهنود فكانوا أكثرَ اتساعًا وأعمقَ أثرًا في آرائهم الصوتيَّة، وهم أوَّل من نظر إلى الدراسات الصوتيَّة على أنَّها فرع مستقلّ من فروع علم اللغة، واشتهر منهم بانيني[٢] بكتابه المسمى "Ashtadhyayi"[٣].

المرحلة الأولى: الدرس الصوتي عند علماء العربيَّة القدماء

لقد أولى العلماء العرب الدراسة الصوتيَّة اهتمامًا كبيرًا؛ لارتباط هذه الدراسة بتجويد القرآن الكريم، فقد مضى علماء العربيَّة يؤلِّفون في النحو والصرف مَشُوبَيْنِ بأحكام الصوت وعلله، حتى إنَّ كثيرًا من ظواهر النحو والصرف لا يمكن تفسيره إلَّا على أساسٍ صوتي؛ إذ تكمن وراءه علةٌ صوتية تؤثِّر فيه، وتعمل كما يعمل العامل في النحو، وكما تبنى الأبنية والصيغ في الصرف، ولا ريب أنَّ الصرفَ أشدُّ التصاقًا من النحو بالأصوات ونظرياتها ونظمها، إذ ضمَّ بحوثًا كاملة حقُّها أن تُدرج في علم الأصوات، كالإدغام والإمالة والإبدال... ونحوها، بل إنَّ كثيرًا من مباحث الصرف الرئيسة تعتمد على علل صوتية بحتة عبّر عنها المتقدمون بالخفّة والاستخفاف ودفع الاستثقال وغيره[٤].

فكان من نتائج هذه الدراسة ظهور علم التجويد الذي حافظ على النطق السليم لأصوات العربيَّة، ومعروف أنَّ عناية العرب بالصوتيات قديمةً جدًّا تعود إلى اليوم الذي بدأ فيه اللحن، إذْ أصاب أصوات العربيَّة، كما أصاب صرفها ودلالاتها. وهذا اللحن هو الذي جعل أبو الأسود الدؤلي (٦٧) هـ يعزم على وضع نقط الإعراب، ثمَّ إنَّ قوله للكاتب، وهو يتلو عليه: ((إذا رأيتني قد فتحت فمي بحرف، فأنقط نقطة على أعلاه، وإذا ضممت فمي، فأنقط نقطة بين يدي الحرف، وإذا كسرت فمي، فاجعل النقطة تحت الحرف، فإن اتبعت شيئًا من ذلك غنَّة [تنوينًا] فاجعل النقطة نقطتين))[٥]، إنَّما يدلُّ على حسَّ أبي الأسود المرهف، وملاحظته الدقيقة؛ حيث لاحظ أثر الشفتين في إنتاج الصوت الذي يسمِّيه المحدثون بالصائت، فحين سمَّى الحركات القصيرة فتحة، وضمَّة، وكسرة، اعتمد على شكل الشفتين، ووضعهما عند النطق، وفي هذا إشارة إلى خاصَّية مهمَّة من خواص الحركات، ثمَّ إنَّ هذا الأساس في التنقيط عضويّ فيزيولوجيّ يعتمده الدرس الصوتيّ

---

(١) البيان والتبيين، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (ت: ٢٥٥هـ)، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣ هـ، ج٣ ١/ ٨٤.

(٢) عالم نحويّ هنديّ، تقدِّره دائرة المعارف البريطانيَّة أنَّه الأقدم في العالم، إذ يعود إلى القرن السادس أو الخامس قبل الميلاد. يُنظر: في الأصوات اللغوية، دراسة في أصوات المدِّ العربيَّة، د. غالب فاضل المطلبي، وزارة الثقافة والإعلام، العرق، ١٩٨٤م /٦٤.

(٣) يُنظر: أصوات اللغة، د. محمود عكاشة، الأكاديميَّة الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، مكتبة دار المعرفة، ط٢. ٢٠٠٧م /٣٤، ومدخل إلى الألسنية /٣٠ –٣١، وعلم الأصوات العام: أصوات اللغة العربية، د. بسام بركة، مركز الإنماء القومي، بيروت، ١٩٨٨م /١٠، وعلم اللغة، مقدّمة للقارئ العربي /٨٧ – ٨٨، والبحث اللغوي عند العرب /٣٤٢ – ٣٤٣.

(٤) يُنْظَر: المنهج الصوتي للبنية العربيَّة – رؤية جديدة في الصرف العربي /٩، والتفكير الصوتي عند الخليل /٧٨.

(٥) أخبار النحويين البصريين، الحسن بن عبد الله بن المرزبان السيرافي، أبو سعيد (ت: ٣٦٨هـ)، تح: طه محمد الزيني، ومحمد عبد المنعم خفاجي – المدرسين بالأزهر الشريف، نشر: مصطفى البابي الحلبي، ط. ١٣٧٣ هـ – ١٩٦٦ م /١٣، ومراتب النحويين: لأبي الطيب اللغوي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر، سنة ١٩٧٤م /٩–١٠، والنحو العربي، مازن المبارك /١٢.

الحديث[1]. وقد كانت بواكير الدرس الصوتيّ العربيّ مرتبطة بالدراسات اللُّغويَّة العربيَّة الأولى، ويمكن أن نتحدَّث عن العلوم التي أسهمت في علم الأصوات عند العرب على النحو الآتي:

أولاً – علماء المعاجم:

أسهم علماء المعاجم العربيَّة إسهامًا كبيرًا في علم الأصوات عند العرب؛ لأنَّه داخل في نطاق دراستهم، فكان لهم السبق في ذلك، فهم أقدم من تحدَّث عن الصوتيات من العرب، ويكفي مثالا على ذلك الخليل في معجمه العين، وابن دريد في معجمه الجمهرة.

١. الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٠هـ):

هو أوّل من التفت إلى صلة الدرس الصوتيِّ بالدراسات اللغويَّة والصرفيَّة والنحويَّة؛ إذْ بنى ترتيب الأصوات على أساس منطقي، انطلاقًا من معرفته بخصائص الحروف وصفاتها، وقد ألَّف أوَّل معجمٍ في اللغة العربيَّة سمَّاه "العين"[2]؛ لأنَّه بدأه بصوت العين الذي يُعَدُّ المصدر الأساس في الدراسات اللغويَّة والصوتيَّة، وقد بَنَى هذا المعجم على أساس صوتي، وصدَّر بمقدمةٍ صوتيَّة، تنمُّ عن حسٍّ لغويٍّ دقيقٍ، فهي أوَّل دراسة صوتيَّة منظَّمة وصلت إلينا في تاريخ الفكر اللغويّ عند العرب، تدلُّ على أصالة علمه، فهو صاحب أوَّل دراسة صوتيَّة منهجيَّة في تاريخ الفكر الصوتيّ عند العرب[3].

وأحسّ الخليل بكثير من جوانب المشكلة الصوتيَّة، إذ تحدَّث عن مخارج الحروف وصفاتها؛ من همس وجهر وشدَّة ورخاوة ونحوها، وتحدَّث عمَّا يحدث للصوت في بنية الكلمة من تغيير يفضي إلى القلب أو الحذف أو الإعلال أو الإبدال أو الإدغام، وذكر عددًا من القوانين الصوتيَّة، وعددًا من المسائل الصوتيَّة واللهجيَّة والقراءات.

وقد رتَّب الخليل الحروف العربيَّة بترتيب خاص، حيث راعى فيه ترتيب تلك الحروف في النطق، فبدأ ترتيبه بأعمق تلك الحروف في النطق، فهو أسبق من ذاق الحروف ليتعرَّف مخارجها: وإنَّما كان ذوقُهُ إيَّاها أنَّه كان يفتح فاهُ

---

(١) يُنظر: الصوتيات علم وفن تدريب وممارسة، د. منال أبو الحسن، القاهرة، دار النشر للجامعات، ط. ٢٠١٤م /١٥.

(٢) هناك من يشكِّك في نسبة معجم العين للخليل، ونرى من يتحاشى الجزم في نسبته له، ولا أريد أنْ أخوض في تفاصيل هذا الموضوع، وممَّن يتحاشى الجزم في ذلك إبراهيم أنيس حيث روى عن ابن جنِّي أنَّه قال: أمَّا كتاب العين ففيه من التخليط والخلل والفساد ما لا يجوز أن يحمل على أصغر أتباع الخليل فضلا عن نفسه (نقل ذلك في كتابه "الأصوات اللغويَّة/١١١")، ومن خلال استعراض الآراء المشكِّكة في نسبة العين للخليل التي أوردها د. عبدالله درويش (محقِّق كتاب العين)، أميل إلى الرأي القائل بصحَّة نسبة معجم العين للخليل، وأنفي نسبته إلى الليث، مع أنَّني لا أنفي مجهود "الليث" فيه كليَّة، إذْ هو الراوي الأوَّل للكتاب، ومخرجه، ولا يعني الاعتراف بمجهود الليث نسبة المعجم إليه. وممَّن يميل إلى ما أميل إليه د. حسام النعيمي. يُنْظَر: الأصوات اللغويَّة، لإبراهيم أنيس /١٠٥ – ١١١، ومقدِّمة محقِّق كتاب العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د عبدالله درويش، بغداد، ١٩٦٧م ١/ ٦ – ٤٠، والدراسات اللهجيَّة والصوتيَّة عند ابن جنِّي لحسام النعيمي، دار الرشيد للنشر، العراق ١٩٨٠م /٥٢.

(٣) ينظر : التفكير الصوتي عند الخليل، للدكتور حلمي خليل /٢٤. والخليل بن أحمد الفراهيدي أعماله ومنهجه، د. مهدي المخزومي، دار الرائد العربي، بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ . ١٩٨٦م /٥٦ – ١٥٨، ومقدمة كتاب العين للدكتور أحمد محمد قدور، عنوان "أصالة علم الأصوات عند الخليل من خلال".

بالألف، ثمَّ يظهر الحرف نحو: أَبْ، أَتْ، أَحْ، أَعْ، أَغْ، فوجد أنَّ العين أدخلَ الحروف في الحلق، فجعلها أوّلَ الكتاب، ثُمَّ جعل ما قرب منها الأرفع فالأرفع حتَّى أتى على آخرها وهو الميم[١]. وقد قال محقّقا المعجم عن مقدّمته: إنَّ ((في هذه المقدّمة بواكير معلومات صوتيَّة لم يدركها العلم فيما خلا العربيَّة من اللغات إلاَّ بعد قرون عدَّة من عصر الخليل))[٢].

ولعلَّ أهمّ ما يستوقف النظر في صنيع الخليل ترتيبه معجمه على أساس صوتيّ، وهو صاحب الفكرة الرائدة في ترتيب الحروف بحسب مخارجها، وقد رتَّبها على النحو الآتي: (ع ح ه خ غ – ق ك – ج ش ض – ص س ز – ط د ت – ظ ذ ث – ر ل ن – ف ب م – و ا ي ء)[٣].

ويُعَدُّ الخليل أوَّل من درس الصوت اللغوي مفردًا، معزولاً، ومجرَّدًا عن سياقه، وذلك في مقدّمة معجمه (العين)، وهو ما سمح له بترتيب معجمه مستندًا إلى الصوت المعزول والمجرَّد، مبتدِئًا من الحلق ومنتهيًا بالشفتين. وهذا ما جعله يدرس أعضاء النطق، ويصنف الأصوات على صحيحه "voyelles"، وصائتة "consonnes"، ثمَّ درّس تصنيف الصوامت، أو الحروف الصحاح – كما سمَّاها – بحسب مخرج الصوت، وصفات النطق والجهر "sourdité" ، والهمس "sonorité"[٤].

ويُعَدُّ الخليل مؤسِّس الدراسات الصوتيَّة عند العرب، وهو من وضع أسس هذا العلم، وتابعه في ذلك علماء العربيَّة إذ تحدَّث عن الجهاز الصوتي وأعضاء هذا الجهاز ومخارج الأصوات وصفاتها، وقد وضع الطريقة التي يمكن من خلالها معرفة مخرج الصوت الحقيقيّ. فكان موفَّقًا في ذلك؛ فقد أيَّد علماء الأصوات المحدثين ما جاء به الخليل قبل أكثر من ألفٍ ومائتي سنة، إذْ يعترف له بصحَّة الكثير من آرائه الصوتيَّة التي كانت مثار إعجاب الباحثين والدارسين؛ لأنَّها قِيْلَت في زمن لم تُعْرَفْ فيه الأجهزةُ الصوتيَّة، لاسيما أنَّ الغربيِّين لم يعرفوا علم الأصوات معرفة حقيقيَّة إلاَّ قبلَ نحو مائة سنة تقريبًا، وما كان قبل ذلك التاريخ إنَّما هو مبادئ ساذجة أسَّسها اليونان قبل ألفي سنة، إذ كان علمهم مقتصرًا على بعض التسميات التي قد ضاع معناها.

وتميَّز الدرس الصّوتي عند الخليل وغيره من علماء العربيَّة الذين جاءوا بعده بالتحليل الموسيقي الذي قام على تحليل الأصوات، وتحديدها مخرجًا وصفة، مكتفين بهاتين الدعامتين لتحديد ومعرفة جماليات الصّوت التعبيريَّة التي تميِّزه من باقي الأصوات اللغويَّة الأخرى، سواء أكانت مفردة، أم كانت داخل النسق الصّوتي.

---

(١) يُنظر: ريادة العرب المسلمين في علم الأصوات /٢، ومقدمة تحقيق كتاب العين للخليل بن أحمد/ ٤٢.

(٢) العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٥هـ)، تحقيق د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، دار الهجرة، إيران . قم، ط، ١٤٠٥هـ ١/١٠.

(٣) يُنظر: العين ١/ ٤٨.

(٤) يُنظر: إسهامات اللغويين العرب في تطوير علم الأصوات /١.

٢. ابن دريد (ت٣٢١هـ):

لقد نال ابن دريد بعلمه وفكره شهرة واسعة، وحظي بمكانة عالية مرموقة؛ لذلك فهو يُعَدُّ حجَّة في اللغة[١]. فهذا أبو الطيِّب اللغوي يقول عنه: ((انتهى إليه علم لغة البصريين، وكان أحفظ الناس وأوسعهم علمًا، وأقدرهم على شعر، وما ازدحم العلم والشعر في صدر واحد ازدحامهما في صدر خلف الأحمر وأبي بكر بن دريد)). وهو من علماء المعاجم الذين تعرَّضوا للجانب الصوتيّ بالدراسة في مقدِّمته جمهرة اللغة؛ إذْ تعرَّض من خلالها للأصوات التي تأتلف والتي لا تأتلف، وأشار إلى تباعد الحروف وتقاربها، وآثاره على نطق الكلمة. وقد اهتم بالأصوات وما يطرأ عليها من تغيير، وهذا دليل على معرفته بالقوانين الصوتيَّة، وعرض مادَّة لغويَّة غزيرة، كان للأصوات نصيب منها، وإن كانت تلك المادة مبثوثة في جميع كتابه، وقد أشار في مقدّمته إلى وصف مخارج الأصوات وصفاتها وائتلافها، وما يحسن من ذلك، وما يقبح في الأبنية المختلفة، والإدغام والإبدال، والحروف الأصلية والزائدة[٢]. ويصدر معجمه بدراسة للحروف العربيَّة، وما تتفرَّد به، فيقول: ((اعْلَم أَن الْحُرُوف الَّتِي استعملتها الْعَرَب فِي كَلَامهَا فِي الْأَسْمَاء وَالْأَفْعَال والحركات والأصوات تِسْعَة وَعِشْرُونَ حرفا مرجعهن إِلَى ثَمَانِيَة وَعشْرين حرفا، مِنْهَا حرفان مُخْتَصّ بهما الْعَرَب دون الْخلق، وهما الظَّاء والحاء، وَزعم آخَرُونَ أَن الْحَاء فِي السريانية والعبرانية والحبشية كَثِيرَة، وَأَن الظَّاء وَحدهَا مَقْصُورَة على الْعَرَب. وَمِنْهَا سِتَّة أحرف للْعَرَب ولقليل من الْعَجم، وَهن الْعين وَالصَّاد وَالضَّاد وَالْقَاف والطاء والثاء، وَالْبَاقِي فللخلق كلهم من الْعَرَب والعجم إِلَّا الْهمزَة فَإِنَّهَا لَيست من كَلَام الْعَجم إِلَّا فِي الِابْتِدَاء))[٣].

ويشير إلى بعض الحروف التي وردت في بعض لهجات العرب، كـ: ((الَّذِي بَين الْبَاء وَالْفَاء، مثل بور إِذا اضطروا إِلَيْهِ قَالُوا: فَور، وَمثل الْحَرْف الَّذِي بَين الْقَاف وَالْكَاف وَالْجِيم وَالْكَاف، وَهِي لُغَة سائرة فِي الْيمن مثل جمل إِذا اضطروا قَالُوا: كمل، بَين الْجِيم وَالْكَاف))[٤].

وقسَّم فيه الأصوات إلى سبعة أجناس جمعها في نوعين: النوع الأول: المصمَّتة وتتمثَّل في حروف الحلق: الهمزة "والهاء والحاء والعين والخاء والغين". وحروف أقصى الفم من أسفل اللسان: "القاف والكاف والجيم والشين". وحروف وسط اللسان مما هو منخفض: "السين والزاي والصاد". وحروف أدنى الفم: "التاء والطاء والدال". وحروف أدنى من سابقتها: مما هو شاخص إلى الغار الأعلى: "الظاء والثاء والذال والضاد"[٥]. والنوع الثاني: المذلَّقة وتتمثَّل في حروف الشفة: "الفاء والميم والباء". وحروف ما بين أسفل اللسان إلى مقدم الغار الأعلى: "الراء والنون واللام"[٦].

---

(١) يُنظر: الجهود الصوتيَّة لابن دريد في مقدمة كتابه جمهرة اللغة، أ. د عبد الحميد زاهيد، الأردن، منشورات جامعة آل البيت ١٤٣٢هـ-٢٠١١م /٣٦٩- ٣٧٧، والجهود الصوتيَّة والصرفيَّة عند ابن دريد، د. عبدالعزيز الصيغ، جامعة عدن، كلية الآداب، مجلة حوليات الآداب، (العدد الثامن)، نوفمبر،٢٠١١م /١١٦- ١٣٣.

(٢) يُنْظَر: جمهرة اللغة ٤٧/١.

(٣) جمهرة اللغة ٤١/١.

(٤) **جمهرة اللغة** ٤٢/١.

(٥) يُنظر: جمهرة اللغة ٤٣/١.

(٦) يُنظر: جمهرة اللغة ٤٥/١.

وقد استفاد الأستاذ الدكتور عبدالحميد في بحثه الموسوم بـ(الجهود الصوتيَّة لابن دريد في مقدمة كتاب جمهرة اللغة) من تلك المقدّمة، فذكر فيه مخارج الحروف وصفاتها لدى ابن دريد، مشيرًا إلى علم الأصوات المقارن في جمهرة اللغة، وعلاقة الأصوات بفصاحة الأبنية، مع ذكر ما تفرَّد به ابن دريد في الأصوات. وقد اتفق ابن دريد مع الخليل وخالفه في بعض القضايا الصوتيَّة، ويتَّضح ذلك من خلال تقسيم المخارج، ومصطلح المصمت، ومصطلح الجنس، والجهر والهمس، وبعض التعاملات الصوتيَّة النظريَّة. وقد تطرَّق ابن دريد في مقدّمته إلى كثير من الظواهر الصوتيَّة الأخرى، وخاصَّة التي لها تعلُّق بالصرف؛ كالإبدال والإدغام والقلب المكانيّ. وقد قصد ابن دريد أن يقدِّم من خلال هذا المؤلّف عملا جليلا يخدم به اللغة العربيَّة، إذْ حشد فيه جمهور كلام العرب، مستبعدًا في الوقت نفسه الكلمات الوحشيَّة المستنكرة؛ ولذا سمَّى كتابه باسم: (الجمهرة). وخالف الخليل بن أحمد في نظام التقليبات الصوتيَّة، حيث ابتكر نظام التقليبات الهجائيَّة؛ فخطا بالمعجم اللغويّ خطوة كبيرة [١].

ثانيًا – علماء النحو :

اعتنى علماء النحو بالصوتيات اهتمامًا كبيرًا، بوصفها مدخلاً لدراسة الصرف من إدغام وإعلال وإبدال، ونحو ذلك، ولعلَّ خير من يمثِّل النحاة في حديثهم عن الأصوات أصدق تمثيل:

١. سيبويه (ت١٨٠هـ) :

يُعُدُّ "الكتاب" لسيبويه المصدر الأوَّل لعلم الأصوات العربي، خاصَّة في باب الإدغام، ويمكن أن نجعله بعد كتاب العين في المرتبة، إذْ لخَّص في آخره آراء الخليل بدقَّة وأمانة، فقد استلهم أفكاره، وصاغها بشكل يتَّسم بالشمول والدقَّة، فكان دقيقًا في تحليلاته، وتقسيماته لصفات الأصوات ومخارجها، فضلا عن الظواهر الصوتيَّة التي درسها دراسة واعية، تنمُّ عن إدراك عميق لأسباب تلك الظواهر وأبعادها الصوتيَّة[٢]. وقد تضمّن الكتاب دراساتٍ صوتيَّةً أوفَتْ على الغاية دقةً وأهميةً، وتنوّعت بتنوّع مادتها؛ فكان منها ما يتعلَّق باللهجات والمقايسة بينها والاستدلالِ لها، ومنها ما يتحدَّث عن ظواهر صوتيةٍ مختلفةٍ كأحكام الهمز من تحقيق وتسهيل وهمزةٍ بينَ بين، والإمالة والفتح وما يتعلَّق بهما من أحكام[٣]. وكذا الإعلالِ والإبدال والتعليل الصوتي لهما إلى غير ذلك من مباحثَ صوتيَّةٍ مبثوثةٍ في طيَّات الكتاب بأجزائه الأربعة، ومنها ما يتعرَّضُ للقراءات، ويستأثرُ الجزءُ الرابع ببابُ الإدغام الذي هو أجلّ هذه المباحث، وقد استهلّه بذكرِ عددِ الحروف العربيَّة، ومخارجها، ومهموسها، ومجهورها، وأصولها وفروعها، وما إلى ذلك ممَّا يدخل في تكوين النظام الصوتي العربي؛ ليغدو أساسًا ومرجعًا لكلِّ من صنَّف في هذا الباب من النحاة واللغويين والقرَّاء[٤]. وقد تناول كثير من اللسانيّين المعاصرين

---

(١) يُنظر: مراتب النحويين / ١٣٥–١٣٦، والمدارس المعجمية والمعاجم العربية بين القديم والحديثة /١٢١.

(٢) يُنظر: الكتاب، عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه، ت:١٨٠هـ، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣. ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م ٤/٤٤٥– ٤٥٨، والتعليقة على كتاب سيبويه، الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسيّ الأصل، أبو علي (ت ٣٧٧هـ)، تح: د. عوض بن حمد القوزي، ط.١٤١٠هـ – ١٩٩٠م، ج٦، ٥/٢٠٨ – ٢١٣.

(٣) يُنظر: الكتاب ٣/٥٤١، و ٤/٤٣ .

(٤) يُنظر: الكتاب ٢/٣٤٢، ٣٧٠، و٣/٣٢٤ – ٣٣٤، و ٤/٣٠٥– ٤٧٨، و ٥/١٦١، ١٧٢، ١٩٢.

المعاصرين مباحث الصوت في "كتاب" سيبويه بالدراسة والتتبُّع، منهم "أرتور شاده" في بحثه، "علم الأصوات عند سيبويه وعندنا"، والدكتور "إبراهيم أنيس" في كتابه "الأصوات اللغوية"، والدكتور أحمد مختار عمر في كتابه "البحث اللغوي عند العرب"، والدكتور "تمَّام حسَّان" في كتابه "اللغة العربيَّة معناها ومبناها"، والدكتور "حسام النعيمي" في كتابه "الدراسات اللهجيَّة والصوتيَّة عند ابن جنِّي"، والدكتور "عبدالصبور شاهين" في كتابه "أثر القراءات في الأصوات"، والطيب بكوش في مقاله "النظرات الصوتيَّة في كتاب سيبويه" حوليات الجامعة التونسيَّة، وتعدُّ هذه الدراسات من أصحِّ الدراسات المتقدِّمة، وما زالت تُعدُّ مصدرًا أساسيًّا عند المحدثين لدراستهم اللسانيَّة والصوتيَّة في العربيَّة[١].

وقد ورث عن الخليل فيما ورث وصفًا دقيقًا لأصوات العربيَّة في مخارجها وصفاتها؛ إذْ حدّد مخارج الأصوات وعيَّن أصوات كلَّ مخرج وصفات الأصوات، وذكر بعض المصطلحات التي استخدمها علماء الأصوات المعاصرين حين تعرَّض لما سمّاه "صفات الحروف"، فوصف اللام بأنَّها "من حافة اللسان من أدناه إلى منتهى طرف اللسان"، ووصفها أيضًا بأنَّها حرف منحرف، أي رغم اتصال طرف اللسان بأصول الثنايا معها نجد أنّ النفس يتسرَّب من جانبي الفم إلى الخارج، فكأنَّما قد انحرف عن طريقه[٢]. وكذلك وَصْفُهُ الراء بأنَّها حرف مكرَّر [٣]، يشبه ما دلَّت عليه التجارب الصوتيَّة الحديثة، ووَصَفَ بعض الحروف بأنَّها مهموسة، وهي ما يسمِّيها الأوربيُّون اليوم بـ "Non Voisés". ويسمُّون المجهورة بـ "Voisés". وحدَّد سيبويه معنى الشدَّة والرخاوة بقوله إنَّ ((الشديد هو الذي يمنع الصوت أن يجري فيه))[٤]، وهذا هو الانحباس الذي نحسُّ به في مخرج الحرف لحظة قصيرة جدًّا؛ بسبب التقاء العضوين التقاءً محكمًا، فإذا انفرجا فجأة سمعنا ما يسمَّى بالصوت الانفجاريّ "occlusive". والدليل على ما نقول أنَّ سيبويه حين تحدَّث عن اللام والنون عدَّهما من الحروف الشديدة؛ لأنَّ طرف اللسان معهما يلزم مكانه، ولكنّ الصوت مع هذا يخرج، ففي حالة اللام يخرج الصوت من جانبي الفمّ، وفي حالة النون يخرج من الأنف[٥].

ولئن كان مبدأ ترتيب الأصوات عند الخليل وسيبويه واحدًا، فإنَّ سيبويه صنّف الأصوات تصنيفًا مغايرًا لتصنيف أستاذه، إذ بدأ بالهمزة وختمه بالواو، وقال الهمزة: ((نبرة في الصدر تخرج باجتهاد، وهي أبعد الحروف مخرجا))[٦] .

---

(١) يُنظر: الأصوات اللغويَّة، إبراهيم أنيس، دار النهضة العربيَّ، مصر، ١٩٦١م /١١١ – ١٣٥، والبحث اللغوي عند العرب /٩١ – ١٠٩، واللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان عمر، عالم الكتب، ط٥. ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م /٥٠ – ٦٣، والدراسات اللهجيَّة والصوتيَّة عند ابن جني، للدكتور حسام النعيمي، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، العراق، ١٩٨٠م، سلسلة دراسة ٢٣٤ /٥٧ – ٥٩، وأثر القراءات في الأصوات والنحو العربي، د. عبد الصبور شاهين، مكتبة الخانجي القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ . ١٩٨٧م /١٨٢ – ٢١٩، ومقالة "النظرات الصوتية في كتاب سيبويه"، للطيب بكوش، في حوليات الجامعة التونسية (١١) ١٩٧٤م.

(٢) يُنظر: الكتاب ٤/٤٣٣، ٤٥٨.

(٣) يُنظر: الكتاب ٤/١٣٦، ١٤٠، ١٤٣.

(٤) الكتاب ٤/٤٣٤.

(٥) يُنظر: الكتاب ٤/ ١٩٩ – ٢٠٠، ٤٣٥ – ٤٥٤، ٤٦٠ –٤٦١، ٤٨٠، و ٥/٢١٣، وشرح صوتيات سيبويه، دراسة حديثة في النظام الصوتي للعربيَّة من خلال نصوص كتاب سيبويه، د. عبدالمنعم الناصر، دار الكتب العلميَّة /١١٠، وإسهامات اللغويين العرب في تطوير علم الأصوات/٢.

(٦) الكتاب ٣/٥٨٤.

فرتّب الأصوات على الشكل التالي: ((الهمزة، الألف، والهاء، والعين والحاء، والخاء، والغين، والكاف، والقاف، والضاد والجيم، والشين، والياء، واللام، والراء، والنون، والطاء، والدال والتاء، والصاد، والزاي، والسين، والظاء، والذال، والثاء، والفاء، والباء، والميم، والواو.))[١] .

وقد أضاف سيبويه إلى هذه الحروف الأصول فروعًا أخرى، فقال: ((وتكون خمسةً وثلاثين حرفًا بحروفٍ هنَّ فروعٌ، وأصلها من التسعة والعشرين، وهي كثيرةٌ يؤخذ بها وتستحسن في قراءة القرآن والأشعار، وهي: النون الخفيفة، والهمزة التي بين بين، والألف التي تمال إمالةً شديدةً، والشين التي كالجيم، والصاد التي تكون كالزاي، وألف التفخيم، يعنى بلغة أهل الحجاز، في قولهم: الصلاة والزكاة والحياة))[٢]. فالحرف عنده بهذا الشكل لا يتوقّف عند ذاك الرمز الكتابي الثابت المتواضع عليه، بل يتعدّاه إلى وحدات أدائيَّة مختلفة تعادل في الدراسات الفونولوجية مصطلح (الفونيم)[٣]، واهتمام القدماء بهذه الفروع قد يكوف له دخل كبير في ظاهرة الانسجام الصّوتي.

ثمَّ يواصل سيبويه حديثه عن هذه الفروع فيقول: ((وتكون اثنين وأربعين حرفًا بحروف غير مستحسنةٍ ولا كثيرةٍ في لغة من ترتضي عربيَّته، ولا تستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر؛ وهي: الكاف التي بين الجيم والكاف، والجيم التي كالكاف، والجيم التي كالشين، والضاد الضعيفة، والصاد التي كالسين، والطاء التي كالتاء، والظاء التي كالثاء، والباء التي كالفاء))[٤].

وهذه الأصوات التي حصرها سيبويه بجيّدها ورديئها، أصلها التسعة والعشرون، فلا تتبيَّن إلاّ بالمشافهة، وقد اتجه سيبويه في استنباط الحروف من الأصوات، عكس ما نهجه المحدثون: وهو البحث عن الأصوات، ثمَّ ملاحظتها، ثمَّ وصفها فتبويبها في مجموعات تسمَّى كلّ مجموعة منها حرفًا (الرمز الكتابي المتعارف عليه) "Grapheme"، وصوتًا (الوحدات الصوتيَّة الذهنيَّة المجرَّدة) "Phoneme"، فمثلا الأصوات المختلفة الدالَّة على النون باختلافها تجمع تحت باب واحد هو "النون"، بينما وضع القدماء لكلِّ حرف رمزه، ولا يهمّ ما يندرج تحت هذا الحرف من أصوات مختلفة حين الأداء، وذهاب سيبويه في هذا المنحى دليل على أنَّه يرى الحرف والصوت شيئًا واحدًا، شأنه في ذلك شأن غيره من اللغويِّين، إلى أنْ جاء ابن جنِّي بفكرة الفرق بين المصطلحين[٥].

---

(١) الكتاب ٤/٤٣١.

(٢) الكتاب ٤/٤٣٢.

(٣) الفونيم "Phonème " أو الوحدة الصوتية: هي أصغر عنصر صوتي في السلسلة الكلاميَّة قادر على التفريق بين معاني الكلمات، ففي العربيَّة تؤلِّف الحروف الهجائية وحدات صوتيَّة مختلفة بحيث يؤدِّي تغير حرف ما في كلمتين متَّفقتين في سائر الحروف إلى تغير المعنى، كما نجد في فعلي (عاد) و(عاذ) فالأول بمعنى رجع، والثاني بمعنى التجأ واعتصم، والفرق بينهما هو فونيم الدال والذال، وكذلك الحركات في العربيَّة؛ فإنَّها تؤلِّف وحدات صوتيَّة بتأثيرها الواضح في تغير المعاني، كما نجد في تغير حركات تاء الفاعل في نحو: (درستَ/ُ/ِ) حيث تتغيَّر دلالة التاء وفق تغيّر حركتها من المتكلم إلى المخاطب أو إلى المخاطبة، بل إنَّ زوال الحركة منها قد يؤدِّي إلى معنى مختلف، وهو معنى الغائبة في (درسَتْ). وقد اختلفت الآراء حوله. يُنظَر: علم اللغة العام- الأصوات /٣١-٣٥، ١٥٥-١٦٣، وفي علم اللغة العام /١١٥-١٣٨، والصوتيات /١٢٣، ودراسات في اللغة /-٨٤٩١، وعلم وظائف الأصوات اللغوية /٥٧-٨١، ولمع من علم الصوت في القراءات القرآنية، د. محمد حسان الطيان.

(٤) الكتاب ٤/٤٣٢.

(٥) يُنظر: علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي /٩٤، ومحاضرات في علم الأصوات /١٠.

ورتَّب القدماء الأصوات بحسب مخارجها، التي لا تتجاوز الستَّة عشر مخرجًا، حيث مثَّلت الأعضاء المعتمد عليها: (الحلق واللسان والحنك الأعلى والأسنان والشفتان والخيشوم).

ويرى بعض العلماء أنَّ العرب لم يعرفوا الوترين الصوتيين، ولا ذبذبتهما، ومنهم "جان كانتينو" حيث قال: يبدوا أنَّ العرب لم تعرف الأوتار الصوتيَّة[١]، حيث حكم على ذلك من خلال وصف القدماء لصفات الأصوات (الهمس والجهر والشدَّة والرخاوة وما يتوسَّطهما)؛ ولأنَّ للحنجرة وللأوتار الصوتيَّة الأثر الكبير في تحديد درجة الصوت المترتِّبة عمَّا تستغلُّه الحنجرة من فراغ رنَّان يحدِّد الأصوات لاسيما العميقة منها[٢]. ولا أرى أصلا لذلك، فقد أشار سيبويه إليهما بدلالة كلامه عليهما، وإن لم يصرِّح بهما. فقد أورد أبو سعيد السيرافي (ت : ٣٦٨ هـ) في شرحه لكتاب سيبويه، أنَّه قال: المهموس إذا أخفيته ثمَّ كررته أمكنك ذلك، وأمَّا المجهور فلا يمكنك فيه. ثمَّ كرَّر سيبويه التاء بلسانه وأخفى، فقال: ألا ترى كيف يمكن؟ وكرَّر الطاء والدال وهما من مخرج التاء فلم يمكن. قال: وإنَّما الفرق بين المجهور والمهموس أنَّك لا تصل إلى تبين المجهور إلَّا أن تدخله الصوت الذي يخرج من الصدر. فالمجهورة كلّها هكذا يخرج صوتهنَّ من الصدر ويجري في الحلق، أمَّا المهموسة فتخرج أصواتها من مخارجها ... والدليل على ذلك أنَّك إذا أخفيت همست بهذه الحروف، ولا تصل إلى ذلك في المجهور[٣].

وهذه الإفاضة من سيبويه تتضمَّن في جملتها خلاصة قيّمة للتفريق بين المهموس والمجهور في مجال إخفاء الصوت. وإخفاء الصوت إنَّما يتحقَّق في المهموسات فلا تتغيَّر، وهو لا يتحقَّق في المجهورات، ويستعاض في تمييزها على ما يسمِّيه بصوت الصدر . ولعلَّ هذا الصوت هو صدى الذبذبات التي تحدث في الوترين الصوتيين بالحنجرة[٤]. ويرى سعيد النعيمي أنَّ الحلق عند القدماء له مفهوم أوسع ممَّا عند المحدثين، حيث يدخل فيه الحنجرة والوتران الصوتيان[٥].

فهناك تقديم وتأخير في بعض الأصوات موازنة بين تصنيف سيبويه وتصنيف أستاذه، وتبع سيبويه في هذا ابن جنِّي في (الخصائص)، وفي (سرِّ صناعة الإعراب)، وابن الجزري في (النشر في القراءات العشر)، وعبد القاهر الجرجاني في (المقتصد)، والخفاجي في (سر الفصاحة)[٦].

---

(١) يُنظر: دروس في علم الأصوات العربيَّة ، جان كانتينو، تر. صالح القرمادي، ومركز الدراسات والبحوث الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة، تونس، ط. ١٩٦٦م /١٨.

(٢) يُنظر: محاضرات في علم الأصوات /١٣.

(٣) يُنظَر: شرح كتاب سيبويه، أبي سعيد السيرافي الحسن بن عبدالله بن المرزبان (ت:٣٦٨هـ)، تحقيق: أحمد حسن مهدلي، وعلي سيِّد علي، دار الكتب العلميَّة، (كتاب الإدغام) ٣٩٤/٥، وفي البحث الصوتي عند العرب، خليل إبراهيم العطية/ ٤٢، وشرح صوتيات سيبويه (دراسة حديثة في النظام الصوتي للعربية من خلال نصوص ... /٩٦.

(٤) يُنظر: الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس/ ١٢٣.

(٥) يُنظر: الدراسات اللهجيَّة والصوتيَّة عند ابن جنِّي /٢٩٧.

(٦) يُنظر: سرّ صناعة الإعراب، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي ت. ٣٩٢هـ، دار الكتب العلمية بيروت– لبنان، ط. ١٤٢١هـ– ٢٠٠٠م ٥٠/١، ونظريَّة اللغة والجمال في النقد العربي، تامر سلّوم، دار حوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط١. ١٩٨٣م، / ٥–٢١، والنشر في القراءات العشر؛ ابن الجزري (٨٣٣هـ)، تصحيح: علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠١/١–٢٢٠، ومحاضرات في علم الأصوات /٨.

وقد بيَّن علماء العربيَّة القدماء أنَّ الصوت لا يتمُّ إلاَّ بالتقاء عضوين من أعضاء النطق، وعلى رأسهم سيبويه حيث ذكر أنَّ النون ينتج من طرف اللسان وما بينهما وبين ما يليها من الحنك الأعلى وما فُويق الثنايا[١].

٢. ابن جنِّي (ت٣٩٢هـ) :

نهض ابن جنِّي بأعباء الصوت اللغويّ بما يصحّ أن نطلق عليه اسم الفكر الصوتيّ، إذ تجاوز مرحلة البناء والتأسيس إلى مرحلة التأصيل والنظريَّة، فقد تمحَّض لقضيَّة الأصوات في كتابه (سرّ صناعة الإعراب) ممَّا جعله في عداد المبدعين، وخطَّط لموضوعات الصوت إذْ عُدَّ فيه من المؤصِّلين، ونحن الآن بإزاء بيان المبادئ العامَّة لفكره الصوتيّ دون الدخول في جزئيات الموضوع. فقد كان له باع كبير في الدراسات الصوتيَّة، ونظر إليه على أنَّه عِلم قائم بذاته، فله العديد من الأفكار اللغويَّة الرائدة خاصَّة في مجال الأصوات والتصريف[٢]. فهو أوَّل من أفرد للدرس الصوتيّ كتابًا في مؤلّف مستقلّ في كتابه الشهير "سرّ صناعة الإعراب"، واستوعب فيه نتاج الخليل وسيبويه فوضع ما يشبه نظريَّة الصوت اللغويّ عند العرب، وكانت نظرته في دراسة الأصوات نظرة علميَّة دقيقة، إذ جمع بين الجانب النظريّ والجانب العمليّ التطبيقيّ، فقد تكلَّم على الصوت بكلمات علميَّة لها مفهومها المحدَّد. فضلاً عن تناوله الأصوات العربيَّة من معظم جهاتها وائتلافها في تركيب الألفاظ. وتناول ابن جنِّي الصفات العامّة للأصوات "traits pertinents des phonemes"، مع دراسة لأعضاء النطق "organes phonatoires" ، ومخارج الأصوات ومجرى الهواء والصوائت القصيرة والطويلة، وبعض الملامح الصوتيَّة مثل التفخيم. وابن جنِّي أول من استعمل مصطلحًا لغويًّا للدلالة على هذا العلم، ومازلنا نستعمله حتَّى الآن وهو "علم الأصوات"(، ويعدُّ ابن جنِّي الرائد في هذه الدراسة[٣].

وقد بسط ابن جنِّي الكلام عن الموضوعات الصوتيَّة الآتية: حروف العربيَّة وترتيبها ووصف مخارجها، وبيان الصفات العامَّة للأصوات وتقسيمها باعتبارات مختلفة، وما يعرض لها من تغيير يؤدّي إلى الإعلال أو الإبدال أو الإدغام أو النقل أو الحذف، والفرق بين الحرف والحركة، والحروف الفروع المستحسنة والمستقبحة، وتكلَّم عن ومزج الحروف وتنافرها، وعن الفصاحة في اللفظ المفرد، إلى غير ذلك من مباحث بوّأَتْهُ المقامَ الأوَّل في هذا الفن، فعُدَّ بحقٍّ رائدَ الدراسات الصوتيَّة، وكان على حقٍّ في قوله: ((وما علمت أنَّ أحدًا من أصحابنا خاض في هذا الفنِّ هذا الخوض، ولا أشبعه هذا الإشباع))[٤]، وقال وهو يتحدَّث عن المشابهة بين أصوات اللغة، والأصوات الخارجة من بعض الآلات الموسيقيَّة: وإنَّما أردنا بهذا التمثيل الإصابة والتقريب، وإن لم يكن هذا الفنُّ ممَّا لنا ولا لهذا الكتاب به تعلُّق، ولكن هذا القبيل من هذا العلم، أعني علم الأصوات والحروف، له تعلُّق ومشاركة للموسيقى، لما فيه من صنعة الأصوات والنغم، فقد ثبت بما قدَّمناه معرفة الصوت من الحرف، وكشفنا عنهما بما هو متجاوز للإقناع في بابهما، ووضّحت حقيقتهما لمتأمِّلها[٥].

---

(١) يُنظر: الكتاب ٤٣٣/٤.

(٢) الصوت اللغوي في القرآن، محمد حسين الصغير، دار المؤرخ العربي، ط.٢٠٠٠م /٥٦.

(٣) يُنظر: الصوت اللغوي في القرآن /٥٦، والبحث اللغوي عند العرب /٩٩.

(٤) سرّ صناعة الاعراب : ١/ ٧٠، ويُنظر: الصوت اللغوي في القرآن /٥٦.

(٥) يُنظر: سرّ صناعة الإعراب ٢٢/١، والبحث اللغوي عند العرب /٩٩.

وشبَّه ابن جنِّي جهاز النطق بالآلة الموسيقيَّة حين إنتاج الصوت، فقال: ((فإنَّ الصوت يخرج فيه مستطيلًا أملس ساذجًا، كما يجري الصوت في الألف غفلا بغير صنعة، فإذا وضع الزامر أنامله على خروق الناي المنسوقة، وراوح بين أنامله، اختلفت الأصوات، وسمع لكلِّ خرق منها صوت لا يشبه صاحبه، فكذلك إذا قطع الصوت في الحلق والفم، باعتماد على جهات مختلفة، كان سبب استماعنا هذه الأصوات المختلفة))[١].

ولم يفرِّق علماء العربيَّة قبل ابن جنِّي بين الصوت والحرف، أو بين ما هو مادِّي ومحسوس، وما هو معنويّ مفهوم، أو بين ما هو وحدة صوتيَّة مجرَّدة وبين ما هو وحدة صوتيَّة منغَّمة، على الرَّغم من أنَّ فكرة الصوت بحسبه وحدة صوتيَّة مجرَّدة قد وجدت عندهم، لكن مضمونها لم يتَّضح. ولم يرد الصوت عندهم بالمفهوم الذي جاء به المحدثون، والذي اصطلح عليه باسم (الفونيم) (phoneme)، أو (الوحدة الصوتيَّة) التي تحتوي مجموعة من الأداءات المختلفة التي تمثِّل صوتًا واحدًا، كأن تجمع الأصوات المختلفة الدالَّة على (الميم)، مع اختلاف المخارج فيها، فتوضع تحت عنوان واحد هو (الميم). وقد بقي الحال على هذا فترة من الزمن إلى أن جاء ابن جنِّي، فأعطى للصوت تعريفًا، حيث فرَّق من خلاله بينه وبين الحرف باعتبارهما وجهان لعملة واحدة، فقال: ((اعلم أنَّ الصوت عرض يخرج مع النفس مستطيلا متَّصلا، حتَّى يعرض له في الحلق والفم والشفتين، مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته، فيسمَّى المقطع أينما عرض له حرفًا. وتختلف أجراس الحروف، بحسب اختلاف مقاطعها، وإذا تفطَّنت لذلك وجدته على ما ذكرته لك، ألا ترى أنَّك تبتدئ الصوت من أقصى حلقك، ثمَّ تبلغ به أيِّ المقاطع شئت، فتجد له جرسًا ما، فإن انتقلت عنه راجعًا منه، أو متجاوزًا له، ثمَّ قطعت، أحسست عند ذلك صدًى غير الصدى الأوَّل، وذلك نحو الكاف، فإنَّك إذا قطعت بها، سمعت هنا صدى ما، فإنْ رجعت إلى القاف سمعت غيره، وإنْ جزت إلى الجيم، سمعت غير ذينك الأولَّين))[٢]. فقد كشف لنا من خلال ذلك عن مصطلح حديث عند الغربيين هو المقطع، فالأصوات عادة تتجمع في وحدات، تكون تلك الوحدات أكبر من الأصوات بالضرورة؛ لأنَّها أطول مسافة صوتيَّة، فتشكَّل في أكثر من صوت وحدة صوتيَّة معيّنة، وأهم هذه الوحدات هو المقطع الذي تذوَّقه ابن جنِّي، فرأى فيه ما يثني الكلام عن استطالته وامتداده تارة، وما تحس به صدى عند تغيّر الحرف غير الصدى الأول تارة أخرى.

والتعريف البسيط للمقطع هو: ((تأليف أصواتي بسيط، تتكوَّن منه واحدًا أو أكثر كلمات اللغة، متّفق مع إيقاع التنّفس الطبيعي، ومع نظام اللغة في صوغ مفرداتها))[٣]. وقد جرى تأليف المقطع العربي على البدء بحرف صامت، ويثنَّى بحركة، ولا يبدأ بحركة إطلاقًا خلافًا للغات الغربيَّة. ومن المبادئ الأساسيَّة أنَّ اللغة العربيَّة تبدأ كلماتها بمتحرِّك واحد، وتختمها إمَّا بحركة، فهو المقطع المفتوح. وإمَّا بصامت، فهو المقطع المقفل. ومن غير الممكن في العربيَّة أن تبدأ الكلمة بمجموعة من الصوامت، أو أن يتخلَّل الكلمة أكثر من صامتين متجاورين، أو أن تختم الكلمة بمجموعة من الأصوات

---

(١) يُنظر: سرّ صناعة الإعراب ١/ ٢١ – ٢٢، ويُنظر: أصوات اللغة /٣٤.

(٢) سرّ صناعة الإعراب ١/١٩.

(٣) شاهين، عبد الصبور، دراسة علم الأصوات لمالمبرج مكتبة الشباب، القاهرة ، ١٩٨٥م / ١٦٤.

الصامتة[١]. وقد استفاد ابن جني، بما قدمه الخليل[٢]، فقال: ((إنَّ الأصول ثلاثة: ثلاثي رباعي وخماسي ، فأكثرها استعمالاً ، وأعدلها تركيباً الثلاثي ، وذلك لأنه : حرف يبتدأ به ، وحرف يحشى به ، وحرف يوقف عليه . وليس اعتدال الثلاثي لقلة حروفه حسب، لو كان كذلك لكان الثنائي أكثر منه؛ لأنَّه أقلّ حروفًا . . . فتمكّن الثلاثي إنّما هو لقلّة حروفه لعمري ، ولشيء آخر هو حجز الحشو الذي هو عينه بين فائه ولامه ، وذلك لتعادي حاليهما . ألا ترى أنَّ المبتدأ لا يكون إلا متحرِّكًا، وأنَّ الموقوف عليه لا يكون إلا ساكنًا، فلمَّا تنافرت حالاهما وسَّطوا العين حاجزًا بينهما؛ لئلا يفجئوا الحسّ بضد ما كان آخذًا فيه))[٣].

لقد أدرك العرب هذا التخطيط المقطعي من ذي قبل، فأكدُّوا عليه حتّى في تقطيع الوزن العروضي للشعر عند الخليل في حدود، وهو ما أثبته ابن جنِّي في برمجيَّته للمقاطع في تفصيله.

ولقد أفاد علماء الغرب من هذا الملحظ إفادة تامَّة، فقد كان المقطع تبعًا للتفكير التقليدي عندهم يتكوَّن من حركة تعتبر دعامة أو نواة، يحوطها بعض الصوامت consonnes، وعليه بني اسم consonne أي الذي يصوّت مع شيء آخر، وهو الذي لا يصوّت وحده، وأطلق على الحركات اسم مصوتات sonnetes؛ لأنَّها قادرة على التصويت دون الاعتماد على شيء آخر، ومن هنا كان المفهوم الوظيفي للمقطع، كما جاءت أفكار الحركات والصوامت[٤]. وهو الذي تحدَّث عنه ابن جنِّي، والواقع في الفكر الصوتي عند العرب، فالحرف لا ينطق وحده فيشكِّل صوتًا، إلَّا بانضمام الحركة إليه، فيتكوَّن بذلك المقطع الصالح للتصويت. ويرى "أتوجسبرسن" otto Jespersen: أنَّ الوحدات الأصواتيَّة تتجمَّع حول الوحدة الأكثر إسماعًا، بحسب درجة الوضوح السمعي. والمقطع طبقًا لرأيه هو المسافة بين حدَّين أدنيين من الوضوح السمعي. فنظريَّة "جسبرسن" من بين ما ارتضاه عالم الأصوات الانجليزي دانيال جونز، فهي وصف جيِّد للمقطع المثالي، ولكنَّها لا تقول شيئًا لنا عمَّا هو جوهري في المقطع، ولا تقول لنا: أين الحدّ بين المقاطع، وهو ما يطلق عليه الحد المقطعي[٥]. ولقد كان البنيوي "فرديناند دي سوسور" أقرب إلى الفكر العربي في تصوّره لحدود المقطع الصوتي على أساس درجة الانفتاح في الأصوات، إذ تتجمع الصوامت حول الحركات تبعًا لدرجة الانفتاح، فالحد المقطعي يوجد ويتوافر حين يكون التنقّل من صوت أكثر انغلاقًا إلى صوت أكثر انفتاحًا[٦].

إنَّ هذا التوصّل إلى حدود المقطع وتعريفاته عند الأوروبيين هو الذي ذهب إليه ابن جنِّي، وأضاف إليه ذائقة كل مقطع، قال: ((وسبيلك إذا أردت اعتبار صدى الحروف أن تأتي به ساكنًا لا متحركًا، لأن الحركة تقلق الحرف عن موضعه ومستقرَّه، وتجتذبه إلى جهة الحرف التي هي بعضه، ثمَّ تدخل عليه همزة الوصل مكسورة من قبله؛ لأنَّ الساكن لا

---

(١) شاهين، عبد الصبور، أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي /٤٠٩.

(٢) يُنْظَر: العين ١/٤٩ .

(٣) الخصائص ١/٥٥-٥٦.

(٤) يُنْظَر: برتيل مالمبرج، العالم الأصواتي الفرنسي علم الأصوات تعريب: د. عبد الصبور شاهين، نشر مكتبة الشباب، القاهرة ، ١٩٨٥م /١٥٥.

(٥) يُنْظَر: برتيل مالمبرج، علم الأصوات /١٥٧.

(٦) يُنْظَر: فرديناند دي سوسور، لغوي سويسري، علم اللغة العام. ترجمة د. يوئيك، يوسف عزيز، آفاق عربية، بغداد، ١٩٨٥م /٧٧ وما بعدها، والصوت اللغوي في القرآن /٦٦..

يمكن الابتداء به، فتقول: اك . اق . اج ؛ وكذلك سائر الحروف، إلَّا أنَّ بعض الحروف أشدّ حصرًا للصوت من بعضها))[١].

وهذا ما يُعَدُّ ابتكارًا لم يسبق إليه، إلَّا فيما عند الخليل في ذواقة للأصوات اب | ات | اع | اغ[٢]. فهي مقاطع طويلة مقفلة، تكونت من ثلاثة عناصر في كل منها، هي: الألف والكسرة والحرف: ب | ت | ع | غ . والمدهش أنَّ ابن جنِّي يهتدي إلى سرِّ المقطع من خلال تصريفه لشؤون الحركات، فهو يعتبر الحركة صوتيًّا تتبُّع الحرف، فتجد بهما الصوت يتبع الحرف: ((وإنَّما هذا الصويت[٣] التابع لهذه الحروف ونحوها ما وقف عليها، لأنَّك لا تنوي الأخذ في حرف غيرها، فيتمكَّن الصويت فيظهر؛ فأنَّما إذا وصلت هذه الحروف ونحوها فإنَّك لا تحس معها شيئًا من الصوت كما تجده معها إذا وقف عليها))[٤]. فيتَّضح من كلام ابن جنِّي أنَّ الصَّوت يخرج مع النَّفس[٥]، ثمَّ يضيف أنَّ التَّعرُّف على صدى الحرف يقتضي تسكين هذا الأخير مع إضافة همزة القطع في أوَّله، وعلَّته في ذلك أنَّ: الحركة تجذب الحرف إلى صوت الحرف الذي هو بعضه[٦]، فالوجه الواحد عنده لا يمكن أن يحدِّد (صوت الحرف). وهذه الطريقة التي وضعها ابن جنِّي لمعرفة صدى الحرف قد حذَّر منها علماء الأصوات في العصر الحديث؛ لأنَّها طريقة غير علميَّة وغير دقيقة، والحرف حينها: ((لا يتحقَّق فيه الاستقلال الذي هو أساس التجربة الصحيحة))[٧]، أمَّا الحرف فإنَّه يرادف في كلامه، ما سبق أن سميناه بمخرج الصوت، وذلك واضح من قوله بعد ذلك: ((الحرف حدّ منقطع الصوت وغايته))[٨]. ومثل هذ الفهم للصوت والحرف عند ابن جنِّي، يوجد كذلك عند ابن سينا؛ إذ يقول: ((والحرف هيئة للصوت عارضة له، يتميَّز بها عن صوت آخر مثله في الحدَّة والثقل تميُّزا في المسموع))[٩].

---

(١) سرّ صناعة الإعراب ١٩/١ – ٢٠.

(٢) يُنْظَر: العين ٤٧/١.

(٣) أوَّل من استخدم مصطلح "الصويت" ابن جني وهو أقرب ما يكون إلى مصطلح "الوحدة الصوتية"، وهي ذلك الصوت الأم الذي يندرج تحته عدد آخر من الأصوات، تختلف عنه صوتيًّا على نحو من الأنحاء، لكنَّها لا تخرج عن كونها فرعًا منه؛ لأنَّها تؤدِّي الوظيفة نفسها، ويقال عن هذه الأصوات التي تتضمنها الوحدة الصوتية إنها أعضاؤها "Allophones" أو صورها. ويمكن أن يطلق عليها مصطلح الصُوَيْتات. يُنْظَر: سرّ صناعة الإعراب ٢٠/١، والخصائص ١/ ٥٨ – ٥٩، ٧٩، ومبادئ علم الأصوات، ديفيد أبركرومبي، ترجمة وتعليق د. محمد فتيح، ط١، ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٨م /١٣٣، وأضواء على الدراسات اللغويَّة المعاصرة، د. نايف خرما، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٨م /٢٦٩، والصوتيات، تأليف برتيل مالمبرج، ترجمة د. محمد حلمي هليل، معهد الخرطوم الدولي للغة العربيَّة، الخرطوم، ١٩٨٥م /١٢٣ حاشية رقم ١، ولمع من علم الصوت في القراءات القرآنيَّة.

(٤) يُنْظَر: سرّ صناعة الإعراب ١/ ٢٠، والصوت اللغوي في القرآن /٦٦.

(٥) سرّ صناعة الإعراب ١٩/١.

(٦) يُنْظَر: سرّ صناعة الإعراب ١٩/١ – ٢٠.

(٧) الأصوات اللغويَّة / ٢٠.

(٨) سرّ صناعة الإعراب ٢٨/١.

(٩) أسباب حدوث الحروف، الحسين بن عبد الله بن سينا (٤٢٨هـ)، تحقيق محمد حسان الطيان ويحيى مير علم، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ط. ١٤٠٣هـ . ١٩٨٣م /٦.

ولا يقلِّل من شأن هذا الكتاب في مجال الدرس الصوتي العربيِّ المباحث الصرفيَّة واللُّغويَّة التي جاءت مختلطة بالمباحث الصوتيَّة. وهذا بالنسبة للعلماء السابقين أمر طبيعي لا يعيب التأليف عندهم، فطريقتهم في ذلك غير طريقتنا اليوم.

وليس هذا كلّ ما كتبه ابن جنِّي في مجال المباحث الصوتيَّة بل تعدَّاه إلى كتبه الأخرى، وفي مقدّمتها "الخصائص" الذي تضمَّن مادَّة صوتيَّة غنيّةً جاء بعضُها منثورًا في تضاعيف الكِتاب، وأُفرد بعضها الآخر في أبوابٍ مستقلَّةٍ، مثل بابٍ في كميَّة الحركات[١]، وبابٍ في مطل الحركات[٢]، وبابٍ في مطل الحروف[٣]. ويبدو أنَّ موضوع طول طول الحركات والأصوات قد استبدّ بابن جنِّي إلى حدٍّ جعله يفرد له رسالةً، لم تصل إلينا، بعنوان "رسالة في مدّ الأصوات ومقادير المدَّات" في ستَّ عشرة ورقة بخطّ ولده. وذكر ياقوت أنَّه كتبها إلى أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد الطبريّ، وقد كتب عن جهود ابن جنِّي الصوتيَّة الكثيرون منهم هنري فليش[٤].

ويعدّ ابن جنِّي من العلماء الذين امتازوا بحسِّهم المرهف فساعده ذلك على التماس ميزات الصَّوت، فقال: ((تختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها، وإذا تفطَّنت لذلك وجدته على ما ذكرته لك؛ ألا ترى أنَّك تبتدئ الصوت من أقصى حلقك، ثمَّ تبلغ به أي المقاطع شئت، فتجد له جرسًا ما، فإن انتقلت عنه راجعًا منه، أو متجاوزًا له، ثمَّ قطعت أحسست عند ذلك صدى غير الصدى الأوَّل))[٥].

وخالف ابن جنِّي سيبويه في بعض القضايا، منها مخالفته في ترتيب أصوات الصفير" السين، والزاي، والصاد"، حيث رتَّب الحروف على مذاقها وتصعّدها[٦]. فمتى انقطع الصوت باصطدامه بحاجز، ينجرّ عن ذلك الاصطدام الحرف الذي يختلف صداه باختلاف موضعه والأعضاء المشاركة في إصداره، وقد ذكر هذا ابن جني حين قال عن الحروف: ((وتختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها))[٧].

ويرى حسام سعيد النعيمي أنَّ الاختلاف في ترتيب حروف الصفير ناجم عن أحد الأمرين: إمَّا أن يكون من عمل النسّاخ، وإمَّا أن يكون سيبويه أو ابن جنِّي قد أحسّ أحدهما بأنَّ الثلاثة من مخرج واحد، لا يتقدّم أيّ منها على غيره،

---

(١) يُنظر: الخصائص ٣/ ١٢٢- ١٢٣.

(٢) يُنظر: الخصائص ٣/ ١٢٣- ١٢٦.

(٣) يُنظر: الخصائص ٣/ ١٢٦ – ١٣٥.

(٤) يُنظر: معجم الأدباء ١١٣/١٢، والتفكير الصوتي عند العرب في ضوء سر صناعة الإعراب لابن جني، لهنري فليش، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة الجزء "٢٣" ١٩٦٨م.

(٥) يُنظر: سرّ صناعة الإعراب ١٩/١.

(٦) يُنظر: سرّ صناعة الإعراب ٥٢/١.

(٧) سرّ صناعة الإعراب ١٩/١.

والفرق بينهما في الصفة، فالزاي من مخرج السين إلاّ أنَّها مجهورة، والسين مهموسة، والصاد من مخرج السين، وهي مهموسة أيضا إلاّ أنَّها تختلف عن السين بالإطباق[١].

وبذلك يتَّضح لنا عمق الفكر الصوتي عند ابن جنِّي؛ إذ يعرض فيه عصارة تجاربه الصوتيَّة دقيقة منظّمة، ويتفرغَّ لبحث أصعب المشكلات الصوتيَّة بترتيب حصيف يتنقُّل فيه من الأدنى إلى الأعلى، ومن البسيط إلى المركَّب حتى إذا تكاملت الصورة لديه، بدأ بالبحث المركَّز، فلا ترى حشوة ولا نبوَّة، ولا تشاهد تكرارًا أو اجترارًا، فترى تأليفًا متكاملًا متناسقًا مبوّبًا بأفضل ما يراد من التنسيق والتصنيف والتأليف، فلا تكاد تستظهر علمًا ممَّا أفاض حتَّى يلاحقك علم مثله كالسيل اندفاعًا، ولعلَّ أبرز ما تعقَّبه في كتابه "سرَّ صناعة الإعراب" لصوقًا بجوهر الصوت الخالص ما يلي: فقد فرَّق بين الصوت والحرف، وتناول ذوق أصوات الحروف، وشبَّه الحلق بآلات الموسيقى (المزمار، والعود)، وتناول اشتقاق الصوت والحرف، والحركات أبعاض حروف المدَّ، والعلل وعلاقتها بالأصوات، وجاء بمصطلحات الأصوات العشرة التي ذكرها آنفا مع ما يقابلها، وذكر حروف الذلاقة والإصمات، وناقش حسن تأليف الكلمة من الحروف فيما يتعلَّق بالفصاحة في اللفظ المفرد، وتأصيل ذلك على أساس المخارج المتباعدة، وتناول خصائص كلَّ صوت من حروف المعجم، وحيثياته، وجزئياته كافَّة، بمباحث متخصِّصة لم يسبق إليها في أغلبها، فهي طراز خاصّ في المنهج والعرض والتبويب.

ولو تتبَّعنا مباحثه في جهوده الأخرى لا سيما في كتابه "الخصائص" لوجدنا مباحث الصوت اللغويّ بشكل مستفيض أيضًا، فقد تناول من خلالها: الصوامت من الحروف والصوائت، وعلاقة اللهجات والإعراب والأفعال بالأصوات، ودرس التقديم والتأخير في حروف الكلمات وتأثيرهما على الصوت، وبيَّن الإعلال والإبدال والإدغام وأثرها في الأصوات، والأصوات وعلاقتها بالمعاني، وتناول أيضًا زيادة المبنى الصوتيّ وأثره في زيادة المعنى. وكما هو معلوم فهذه هي أهمّ الأصول العامَّة لمباحث الصوت اللغويّ عند ابن جنِّي في كتابيه، والتوسُّع في كلِّ أصل يقتضي بحثًا متكاملاً في كلِّ مقوماته، وبذلك يتوصّل إلى فكره الصوتيّ، في العرض والأسلوب[٢].

ونحا الخفاجي نحو ابن جنِّي في التمييز بين الحرف والصوت، فيقول: ((وسمِّيت الحروف حروفًا لأنَّ الحرف حدّ منقطع الصوت))[٣].

ثالثًا – علماء الصرف:

يُعَدُّ الدرس الصرفيّ من الدروس المهمَّة في بناء الدرس اللغويّ بصورة عامَّة، وكما هو معروف لا يقوم هذا الدرس بمفرده، بل يستند إلى غيره من العلوم، وخاصَّة علم الصوتيات، وما يتعلَّق بهذا العلم من جوانب تسهم في دراسة بنية الكلمة، وما تتعرَّض له من قضايا، قابلة للزيادة والنقصان، وما يتعلَّق بعلاقات الأصوات داخل البنية مع بعضها بعضًا، فجاء علماء الصرف بعد علماء المعاجم، وعلماء النحو، واهتموا بعلم الصوت؛ لأنَّهم يعلِّلون لبعض الصيغ التي

---

(١) يُنظر: الدراسات اللهجيَّة والصوتيَّة عند ابن جنِّي /٣٠١، والصوت اللغوي في القرآن /٦٠، ومحاضرات في علم الأصوات /٩.

(٢) يُنظر: الصوت اللغوي في القرآن /٥٨ –٥٩.

(٣) سر الفصاحة، عبد الله بن سنان الخفاجي (٤٦٦هـ)، تحقيق علي فوده، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٥٠هـ. ١٩٣٢م / ٢٣.

تدخل الأصوات في نطاق دراستها؛ كالإبدال الصرفيّ، والإعلال، والإدغام، والحذف، والإمالة، وغيرها من المسائل التي كانت تدخل مادة الصرف على الرغم من كونها صوتيَّة. وهناك ظاهرة صوتيَّة متميِّزة في أبحاث العرب لم تبحث في مجال الصّوت، وإنَّما بحثت في تضاعيف التصريف، ذلك أنَّ صلة الأصوات وثيقة في الدرس الصرفيِّ عند العرب في كلِّ جزئياته الصوتيَّة، فكان ما توصَّل إليه العرب في مجال البحث الصرفيّ عبارة عن استجابة فعليَّة لمفاهيم الأصوات قبل أن تتبلور دلالتها المعاصرة، فإذا أضفنا إلى ذلك المجموعة المتناثرة لعناية البحث النحويِّ بِمسائل الصّوت خرجنا بحصيلة كبيرة متطوّرة تؤكِّد النظريَّة الصوتيَّة في التطبيق ممَّا يعدَّ تعبيرًا حيًّا عن الآثار الصوتيَّة في أمَّهات الممارسات العربيَّة في مختلف الفنون.

هناك الكثير من علماء الصرف الذين عالجوا مباحث صوتيَّة متعدِّدة، منهم: ابن الحاجب (ت ٦٤٦ هـ) في كتابه "الشافية". فقد ناقش فيه كثيرًا من القضايا الصوتيَّة، كالابتداء، والإمالة، وتخفيفَ الهمزة، والإعلال، والإبدال، والحذف، والإدغام في الكلمة الواحدة، والإدغام الذي بين كلمتين، والتقاء السَّاكنين في الكلمة الواحدة، والتقاء الساكنَيْن الذي بين كلمتين، والوقف. وقد اتخذ القضايا الصوتيَّة وسيلة لتعليل القضايا الصرفيَّة الواردة في الشافية. وكما هو معروف فهناك علاقة حميمة بين مستويي الدرس الصوتيِّ، والدرس الصرفيِّ ناقشها ابن الحاجب في هذا الكتاب. ولدراسة الفكر الصوتيّ، وتناول القضايا الصوتيَّة الصرفية عند ابن الحاجب والمعالجة، والمقارنة ما بين فكره، وآراء بعض العلماء القدماء والمحدثين من إدغام، وإبدال، وإعلال، والإتيان بالتحليل المقطعي أحيانًا؛ لإبراز دور المعالجة الصوتيَّة، وإبراز الهويَّة للصوت جرَّاء التأثُّر، والتأثير من خلال السياق، فقد تناول ظاهرة الإمالة، وتخفيف الهمزة، وقد ساعد في إرساء الميدان الصوتيِّ مع غيره من علماء اللغة القدماء، إذ يعتبر هذا مرجعًا قيِّمًا للعلماء العرب، وبعض الغربيِّين الذين لا زالوا يعتمدون على بعض مؤلفات عربيَّة حتَّى اليوم. وعلى الرغم من اعتماد ابن الحاجب في ذوق الحروف لتصنيفها، وتوصيف صفاتها على الملاحظة، والخبرة الذاتيَّة، فقد كان لأفكاره شأنها، كخلفيَّة خصبة لتطوّر هذا العلم، وتقدّمه، والنهوض به؛ لإبراز الهويَّة الصحيحة للصوت من خلال تحليله عبر مختبرات، وأجهزة تقنيَّة حديثة، وما يعكسه من آثار على سلسلة الكلام. وعلى الرغم من كلِّ ما سبق، فإنَّ بعض المصطلحات ما زالت غامضة، وتحتاج إلى مزيد من الجهد، والبحث، والدرس؛ لإبرازها، وما يتناسب والعصر، والتطوّر السريع.

لقد أبرز علماء الصرف التفاعل الواضح بين النِّظام الصوتيّ والنظام الصرفيّ، وأبرز المواضع البارزة لهذا التفاعل تكون في: الحركات والبِنَى الصرفيَّة؛ حيث أشاروا إلى الدَّور الواضح للحركات في التنبيه على البِنْيَة. وفي التغيير الصوتيّ الصرفيّ، أبرزوا فيه مفهومهم للتصريف الذي ينسجم مع المفهوم من هذا التَّغيير، وجرى في أغلب تلك المواضع الخضوعُ لمتطلَّبات النظام الصوتيِّ دون نظامَي الصرف والنحو. ومن القضايا التي بيَّنها علماء الصرف أنَّ بني تميم أكثرُ ميلاً للانسجام الصوتيّ من غيرهم، حيث ذكروا كثيرًا من الظواهر الصوتيَّة اللهجيَّة مثل: كسر حرف المضارعة، والتخفيف، والمماثلة بأنواعها، والإتْباع، وميل بعض القبائل العربيَّة نحو الكسر، والضمِّ، والفتح، والتخفيف، والإتباع، والوقف، والترنُّم، والإدغام بين المتماثلين. ومنه ميل تميم إلى الكسر، والحجاز إلى الضمِّ، مع ربط الأوَّل منهما بالبيئة البدويَّة، والثاني بالبيئة الحضريَّة.

وتناول علماء الصرف الأثر الذي سبَّبه التَّداخلُ اللهجيّ في الدَّرس اللُّغويّ العربيّ القديم؛ حيث أوجد ثراءً لأطراف الدِّراسة الصوتيَّة، ومنها مظاهر التعامليَّة خاصَّة، وفي الجانب الصرفيّ سبَّبَ هذا التداخلُ تكاثرًا يكاد يعسر تحديده من قِبَل الدَّارسين، وإنَّ أبرز آثاره تعدُّد البِنَى اللغويَّة للمفردة الواحدة بين الاستعمال، والإفراد، وعند الوقف. وكان للقدماء من علماء العربيَّة بحوث في الأصوات اللغويَّة، شهد المحدثون الأوروبيُّون أنَّها جليلة القدر بالنسبة إلى عصورهم، وقد أرادوا بها خدمة اللغة العربيَّة، والنطق العربيّ، ولاسيما في الترتيل القرآنيّ، ولقرب هؤلاء العلماء من عصور النهضة العربيَّة، واتصالهم بفصحاء العرب كانوا مرهفي الحسّ، دقيقي الملاحظة، فوصفوا لنا الصّوت العربيّ وصفًا أثار دهشة المستشرقين وإعجابهم[١].

المرحلة الثانية: الدرس الصوتيّ عند علماء الفلسفة والطب والحكمة

لقد كان لعلماء الفلسفة والطبِّ والحكمة دور بارز في مناقشة بعض القضايا الصوتيَّة، ومنهم "الكندي" (ت ٢٦٠ هـ) الذي كانت له عناية متميِّزة بالأصوات، تبدّت في أكثر من مصنّف، وعلى رأس ذلك رسالته في استخراج المعمّى؛ حيث تكلَّم عن تردّد حروف العربيَّة ودورانها في الكلام معتمدًا على إحصاءٍ صنَعه بنفسه، وتقسيمِها إلى مصوّتة وخرس صامتة. وذكر قانونًا لغويًّا عامًّا يسري على كلِّ اللغات، ونبّه على اشتمال المصوتّة على المصوتات العظام، وهي حروف المدّ، والمصوّتات الصغار، وهي الحركات "Les voyelles longueset les voyelles breves"، ثمَّ بسط الكلام على نسج الكلمة العربيَّة باستفاضة، إذ أورد ما يقرب من مئة قانون من قوانين ائتلاف الحروف واختلافها أو تنافرها[٢]. ومنهم "الفخر الرازي" (ت ٦٠٦ هـ) في كتابه "التفسير الكبير" حيث تكلَّم عن الأصوات وتولُّدِها وأقسامها وعلاقتها بعلم التشريح. وله "المباحث المشرقيَّة في علم الإلهيات الطبيعيات"، حيث تكلَّم عن آلية التصويت كلامًا مُعجِبًا يتوافق مع كثير ممَّا جاء به علم الفيزياء الحديث. ومنهم "عبد اللطيف البغدادي" (ت ٦٢٦ هـ)، وهو واحد من فلاسفة الإسلام المكثرين من التصنيف في الحكمة وعلم النفس والطبّ، ومن رسائله المتصلة بموضوعنا: "مقالتان في الحواس "و"النفس والصوت والكلام " و"اللغات وكيفيَّة تولدها"[٣]، وهناك رسالة أخرى ذات مساسٍ بالصوتيات بل بتطبيقٍ دقيق من تطبيقاتها هو ما يدعى اليوم بأمراض النطق "Troubles de la parole "، وهي رسالة "اللثغة"، وقد قدّم لها ببيانٍ وافٍ لآلية النطق، وعلاقتها بالحروف، وما تحتاجه كلّ لغة من اللغات السائدة آنذاك من الحروف، ثمَّ تكلَّم على أسباب اللثغة وما يعرض للسان من التشنُّج أو الاسترخاء، ووصف مخارج حروف العربيَّة، وهيئاتِ النطق بها وصفاً تشريحيًّا فيزيائياً على نحوٍ يختلف عمّا عهدناه عند سيبويه وخالفيه، ثمَّ حدّد حروف اللثغة، وسمّى أعراضها وأنواعها وختم الكلام بعللها.

---

(١) يُنظر: الأصوات اللغويَّة /٥، ومحاضرات في علم الأصوات /٢٢.

(٢) يُنظر: المعجم العربي، دراسة إحصائية صوتية مخبرية ٢/٢٤ – ٤١، وكتاب علم التعمية واستخراج المعمى ١/٢٠٤ – ٢٥٩.

(٣) يُنظر: الأعلام، خير الدين الزركلي (١٣٩٦هـ)، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٩٨٠م ٤/٦١، ومقال الدكتور الهليس /١٠٣، وأضواء على الطبيب العربي والعالم الموسوعي عبد اللطيف البغدادي، بحث للدكتور عبد الكريم شحادة، ضمن أبحاث الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب /٦٩٣ – ٧٧٤.

ومخالفة نهج سيبويه في تتبع مخارج الحروف تفضي بنا إلى ملاحظة هامَّة تتعلَّق بطبيعة تناول هؤلاء الحكماء للصوت، إذ هي تنزع نحو فيزيائيَّة الصوت أو ما أطلق عليه بعض الباحثين اسم علم الصوتيات المَوْجيّ السمعيّ "Acoustique phonetique" ولا غروَ فقد عرض حكماؤنا لمصدر الصوت، وكيفيَّة انتقاله في الهواء، والمميِّزات الخاصَّة التي يتَّصف بها، وكيفيَّة وصوله إلى الأذن، وإدراكه، والتمييز بين الأصوات اللغويَّة وغير اللغويَّة، ووضع المعايير السمعيَّة لتقسيم الأصوات اللغويَّة، والنغمة الصوتيَّة، وشدَّة الصوت(١).

وممَّن اهتمَّ بهذه الدراسات "الفارابي" (ت ٣٣٣٩هـ): من ذلك كلامه على حدوث الصوت والنغم، وربطه بين المبدأ الطبيعي لحدوث الصوت وكيفيَّة حدوث الكلام، وعنايته بدرجة الصوت (حدّته وثقله) وإشارته إلى وجوب استعمال الآلات للقيام ببعض القياسات التي يصعب تحديدها بالسمع.

ومنهم "ابن سينا" (ت ٤٢٨ هـ)، حيث عالج أصوات اللغة علاجا فريدًا، ففي رسالته "أسباب حدوث الحروف" أشار إلى كنه الصوت وأسبابه، ووصف أجزاء الحنجرة "larynx"، واللسان "langue"، وتميَّز كلامه بمصطلحات تتوافق إلى حدٍّ كبيرٍ مع ما اهتدى إليه المحدثون من علماء الأصوات اللغويَّة، حيث لا نكاد نقع عليه عند أحد من المتقدِّمين، وهو يتَّصل بما يسمَّى علم الأصوات النطقي "phonetique articulatoir" فقد جاء حديثه فيها حديث العالم الفيزيائيّ حين أشار إلى كنهِ الصوت وأسبابه، وحديث الطبيب المشرِّح حين وصف الحَنجرة واللسان، وحديث اللغويّ المجوِّد حين تعرَّض لوصف مخارج الحروف وصفاتها، وحديث عالم الأصوات المقارنة حين تصدَّى لوصف أصوات ليست من العربيَّة، وحديث فقيهِ اللسان وأسرار الطبيعة حين ربط بين أصوات الطبيعة وأصوات الحروف. وتميَّز كلامُهُ في ذلك كلّه بمصطلحاتٍ لا نحسِب أحدًا من علماء العربيَّة يَشْرَكُهُ فيها(٢). فقد قسَّم رسالته على ستة فصول:

أوّلها : في سبب حدوث الصوت، حيث ردَّ ذلك إلى القلع أو القرع اللَّذَين يلزم عنهما تموّجٌ سريعٌ عنيفٌ في الهواء يُحدِث الصوتَ.

ثانيها : في سبب حدوث الحروف، حيث يبيّن أنَّ حال المتموِّج في نفسه من اتصال أجزائه أو تفرّقها تفعل الحدَّة والثقل – وهما يمثِّلان شدَّة الصوت – "pitch" ، وأنَّ حاله من جهة الهيئات التي يستفيدها من المخارج والمحابس في مسلكه تفعل الحرف، ثم يُعرِّفُ الحرفَ، ويقسِّم الحروف إلى مفردة ومركّبة موضّحًا طبيعة كلٍّ منها. ومن المعلوم في الصوتيات الفيزيائيَّة اليوم أنَّ الصوت الحاد أعلى تردُّدًا من الصوت الثقيل، فالتردُّد الأساسي لصوت المرأة (٣٥٠ – ٥٠٠) هرتز (هزة بالثانية)، في حين ينحصر التردد الأساسيّ للرجل بين (١٠٠ – ٢٥٠) هرتز، ويمكن تمثيل ما قاله "ابن سينا" هنا بصوت الطبل، فكلَّما كان سطحه أملس وأجزاؤه متماسكة كان صوته حادًّا، وكلَّما كان سطحه متشظيًّا متشذِّبًا غير متماسك كان صوته ثقيلاً.

---

(١) يُنظر: علم الصوتيات الموجي والسمعي عند علماء المسلمين القدماء، مقالة، للدكتور يوسف الهليس، في المجلة العربية للدراسات اللغوية المجلد الثالث العدد الثاني ١٩٨٥ / ١٠١– ١٢٣.

(٢) يُنظر: ريادة العرب المسلمين في علم الأصوات /٣، وإسهامات اللغويين العرب في تطوير علم الأصوات /٢.

ثالثها: في تشريح الحَنجرة واللسان: حيث تبدّت عبقريّة ابن سينا الطبيّة، فشرَّح الحنجرة مبيِّنًا غضاريفَها الثلاثة (الدَّرَقي، والطِّرْجِهاري، وعديم الاسم) وكيفيَّة تركّبها، وارتباط بعضها ببعض عن طريق المفاصل والعضلات التي عدّدها وحدّدها تحديدًا دقيقًا بعد أن قسَّمها إلى عضلاتٍ مضيِّقة للحنجرة وأخرى موسّعة، وأشار إلى ارتباط بعضها بأنواع معيّنة من العظام (كالعظم الشبيه باللام). ثمَّ شرَّح اللسان مبيّنًا عضلاتِه الثماني وارتباطاتها المختلفة.

رابعها : في الأسباب الجزئيَّة لحرف حرف من حروف العربيَّة، وهو بيت القصيد من الرسالة إذ تناول فيه حروف العربيَّة حرفًا حرفًا مبيّنًا سببَ حدوثِها، وما يعتري كلاًّ منها من عمليّات عضوية تتبدّى في دفع الهواء، وحبسه، وكيفيَّة هذا الحبس، والوسط الذي يتردّد فيه الهواء المدفوع من رطوبةٍ أو يُبُوسة أو ما إلى ذلك.

ولعلّ من أهم ما في هذا الفصل تفريق ابنِ سينا بين الواو والياء الصامتتين، والواو والياء المصوّتتين، ثمَّ بيانه العلاقة بين المصوّتات الطويلة والمصوّتات القصيرة ومحاولته تحديد زمن حصول كلّ منها.

خامسها: في الحروف الشبيهة بهذه الحروف وليست في لغة العرب، حيث عرض لحروف أعجميَّة (فارسيَّة ويونانيَّة وتركيَّة) تشبه بعض حروف العربيَّة، مثل "G و Vو P" والراء الطائيَّة[١] في مثل (يصدر)، واللام المطبقة في مثل (الصلاة) بتفخيم اللام. وتجدر الإشارة هنا إلى أنَّ بعضَ هذه الحروف موجود في بعض اللهجات العربيَّة القديمة، ومن ثمَّ فقد اشتملت عليه بعض القراءات القرآنيَّة، كما جاء في قراءة حمزة والكسائي: ((حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ))[٢]، بإشمام الصاد صوت الزاي، وكما جاء في قراءة ورش ((وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ))[٣] بتفخيم اللام.

سادسها: أنَّ هذه الحروف قد تسمع من حركات غير نطقيَّة. وهو فصل طريف يربط فيه ابن سينا بين أصوات اللغة والأصوات الطبيعية الأخرى محاولاً أن يتلمَّس وجوه الشبه بينهما، فالخاء عن حك الجسم ليّن حكًّا كالقشر بجسم صلب، والشين عن نشيش الرطوبات، وعن نفوذ الرطوبات في خلال أجسام يابسة نفوذاً بقوَّة، والطاء عن تصفيق اليدين بحيث لا تنطبق الراحتان بل ينحصر هناك هواء له دويّ، والتاء عن قرع الكف بإصبع قرعًا بقوَّة، وهكذا البقيَّة. كذلك لا تخلو كتب ابن سينا الأخرى كـ"القانون" و"الشفاء" من إلماعات صوتيَّة تدخل فيما نحن بصدده[٤].

وقد فطن كثير من اللغويِّين الغربيِّين إلى أهميَّة تراثنا اللغويّ العربيّ فأوْلَوْه جلَّ اهتمامهم، وربطوا بين التراث العربيَّ والنظريات الحديثة في دراستهم للعربيَّة، وجاءت أعمالهم من الدراسة والتحليل والعمق بالقدر الذي يجعلنا نؤكِّد أنَّهم استطاعوا الإجابة عن كثير من القضايا اللغويَّة في العربيَّة، ومن هؤلاء جان كانتينو (Jean Cantineau) وريجي بلاشر (Régis Blachère)، وأندريه رومان (André Roman) وكذلك اللغوي الشهير هنري فليش (Henri Fleisch) الذي

---

(١) تنطق بتدوير اللسان للخلف.

(٢) القصص /٢٣.

(٣) البقرة /٣.

(٤) يُنظر: أسباب حدوث الحروف /٥٤ – ٩٧، والقانون في الطب، الحسين بن سينا (٤٢٨هـ)، تحقيق د. إدوار القش، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٨هـ . ١٩٨٧م ٦٤/١ – ٦٦، و ١١٤٥/٣ – ١١٤٩، والشفاء، الطبيعيات–الحيوان، ابن سينا–الشيخ الريس، ط. ١٩١٧م/١٠.

أولى العربيَّة جلَّ عنايته، وخدمها بالعديد من البحوث، والمؤلفات الجادَّة التي من أهمها: دراسات في علم الأصوات العربيّ، ودراسات في الفعل العربيّ، وتاريخ النحو العربيّ، والتفكير الصوتيّ عند العرب في ضوء "سرِّ صناعة الإعراب" لابن جنِّي، وغير ذلك. ولم يخرج هؤلاء العلماء المعاصرون كثيرًا عن أسلوب الدراسات الصوتيَّة العربيَّة، فجعلوا دراستهم في فرعين أساسين هما: علم الأصوات اللغويَّة "Phonétique"، وعلم وظائف الأصوات"Phonologie"[١].

المرحلة الثالثة: الدرس الصوتيّ عند علماء القراءات والتجويد

وممَّن اهتمَّ بالقضايا الصوتيَّة اللغويَّة علماء القراءات والتجويد، حيث كان لهم دور كبير في مناقشة هذه القضايا، فتجد عندهم مصطلحات صوتية كثيرة كـ(الإشمام، والإشباع، والروم[٢]، والإمالة[٣]، والإظهار، والإخفاء، وترقيق الأصوات وتفخيمها). وأنصع دليل على ذلك ما فعله ابن الجزري في (المقدمة الجزرية) و (كتاب النشر في القراءات العشر)، وكان اهتمام علماء التجويد أكثر، ويمكن أن نستعرض بعضًا من ذلك على النحو الآتي:

أولا – علماء القراءات:

فقد كان لعلماء القراءات دور كبير في الاهتمام بالقضايا الصوتيَّة، فأوَّل كتاب وصلنا في هذا الفن كتاب "السبعة" لابن مجاهد (ت ٣٢٤ هـ)، وهو أوَّل من سبّع السبعة، ثمَّ توالى بعده التأليف في القراءات، فألِّفت بعده الكتب على منواله، وتنهَّل من منهله على اختلاف عدد القرّاء في كلٍّ منه، لكنها اقتصرت بادئ الأمر على المشافهة والتلقين دون الكتابة والتدوين، ثمَّ ظهرت مصنّفات القراءات القرآنيَّة التي عنيت ببيان وجوهِ الأداء المختلفة معزوّةً إلى ناقليها، ووجوهُ الأداء هذه تشتمل على الكثير من الظواهر الصوتيَّة؛ كإدغام المتماثلين، والمتقاربين، وإظهارهما، ونبر الهمز، وتسهيله، وإبداله، وحذفه، وإمالة الألف، والفتحة، وفتحهما، وغير ذلك مَّما يدخل تحت ما يدعى اليوم بعلم وظائف الأصوات "phonologie"[٤]. وتشتمل القراءات على وجوه أداء صوتيَّة تفنَّن العلماء العرب في تتبُّعها ودراستها، وتقعيدها وتعليلها،

---

(١) علم وظائف الأصوات: Phonologie : علم يدرس الصوت الإنساني في سياقه، أي في تركيب الكلام، ويُعنى بأثر هذا الصوت في مستويات اللغة المختلفة: الصرفيَّة، والنحويَّة، والدلاليَّة، فموضوعه إذًا وظائف الأصوات والعلائق والفروق بينها والتبدلات الطارئة عليها؛ من أجل ذلك يطلق عليه علم الأصوات التنظيمي أو التشكيلي. يُنظر: علم اللغة العام– الأصوات، د. كمال محمد بشر، دار المعارف بمصر، ١٩٧٥م /٢٨ – ٢٩، والتجويد والأصوات /٤، ومبادئ علم الأصوات /٣٠٢، وعلم الأصوات العام /٧، ٧٦، وفي علم اللغة العام /١٠٦، وأضواء على الدراسات اللغويَّة /٢٥٨، والصوتيات /١٢١–١٢٨، وعلم وظائف الأصوات اللغوية /٣٥.

(٢) هو: النطق بالحركة بصوت خفي. المرجع السابق : ١٢١/٢.

(٣) هو: جنوح بالألف إلى صوت الياء، والفتحة إلى صوت الكسرة. دروس في علم أصوات العربية: جان كانتينو، أوفست الشركة التونسية، تونس، ١٩٦٦م /٢٥٤.

(٤) يُنظر: النشر في القراءات العشر ١/ ٣٤، ٣٥، وكشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون؛ مصطفى بن عبدالله الرومي المعروف بحاجي خليفة (١٠١٧هـ)، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٢هـ. ١٩٨٢م ٢/ ١٣١٧ – ١٣٢٢، وتاريخ التراث العربي؛ د. فؤاد سزكين، ترجمة د. محمود حجازي ود. فهمي أبو الفضل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٧م ١/ ١٧، ٣٦، وعلم اللغة العام: الأصوات /٢٨ – ٢٩، وعلم الأصوات العام /٧، ١٧٦.

سابقين إلى كثير من قوانين علم وظائف الأصوات التي أرستها الدراسات الصوتيَّة الحديثة، كقانون الجهد الأقل Le moindre effort"، وقانون القوة "Energie"، وقانون المماثلة "Assimilation" وغيرها.

فقد شارك علماء القراءات في إضافة تفصيلات صوتيَّة إلى ما أُثِر عن الخليل وسيبويه، إذ سجّلوا خصائص صوتيَّة تنفرَّد بها التلاوة القرآنيَّة، ووضعوا أصولًا وقواعد تمثِّل كثيرًا من هذه الخصائص، مما كان لَه أعظم الأثر في علم الأصوات[١]. ومن المعلوم أنَّ القرآن نزل بمكَّة، وجاءت القراءات القرآنيَّة مصاحبة لذلك، فكانت معها وجوه الاختلافات الصوتيَّة التي تعتبر البذرة البسيطة لنشأة الدرس الصوتي، فالاختلافات الصوتيَّة أوسع ظاهرة يمكن أن تصنَّف القراءات القرآنيَّة تحتها. والمعروف أنَّ الأصوات العربيَّة نوعان: الأول: حركات (صوائت): قصيرة: الفتحة، والكسرة، والضمة. وطويلة: الألف، والياء، والواو (عندما تكون أصوات مد). الثاني: سواكن (صوامت): وتتمثَّل في بقيَّة أصوات اللغة الأخرى[٢]. وتأخذ بعض القراءات صورًا متعدَّدة في هذا الإطار الصوتي بنوعيه[٣]. فقراءة تفضِّل حركة معيِّنة: فتحة، أو كسرة، أو ضمة. وقراءة تثبت حركة أو تحذف. وقراءة تبدل حرفًا من آخر. وقراءة تقرِّب صوتًا من آخر بما يحقِّق الانسجام والتماثل. ويقصد بالتماثل: تأثير الأصوات المجاورة بعضها في بعض تأثرًا يؤدِّي إلى التقارب في الصفة والمخرج، تحقيقًا للانسجام الصوتيّ، وتيسيرًا لعملية النطق، واقتصادًا في الجهد العضليّ[٤]. وللقدماء من أهل اللغة إشارات جليَّة توضِّح إدراكهم لهذه الظاهرة، وذلك مضمَّن في ثنايا حديثهم عن الإدغام، وإن لم يطلقوا عليها هذا الاسم[٥]. ولا يمكن تجاهل مساهمات القرَّاء في تطوير الدرس الصوتيّ عند العرب قديمًا، فقد قدَّموا عملًا معتبرًا في ذلك بـ ((إضافة تفصيلات صوتيَّة إلى ما أُثر عن الخليل وسيبويه، فهم قد سعوا إلى وصف تلاوة القرآن الكريم حسب القراءات المختلفة، فسجَّلوا خصائص صوتيَّة تنفرد بها التلاوة القرآنيَّة، ووضعوا رموزًا كتابيَّة تمثِّل هذه الخصائص))[٦]. فعلم القراءات علم يُعْرَفُ فيه اختلاف أئمَّة الأمصار في نظم القرآن في نفس حروفه، أو في صفاتها، فإذا ذُكِرَ شيء من ماهيَّة صفات الحروف، فهو تتميم، إذ لا يتعلَّق الغرض به[٧]. وهو علم يُعْنَى باختلاف وجوه النطق المرويَّة عن القرَّاء. وقد أعانهم على العناية بالجانب الصوتيّ الصوتيّ أنَّ قراءات القرآن الكريم كانت متواترة بالتلقِّي الشفويّ[٨]، ومن القضايا الصوتيَّة التي اهتمَّ بها علماء القراءات

---

(١) يُنْظَر: علم اللغة، محمود سعران /٦٩.

(٢) يُنْظَر: السعران، محمود، علم اللغة / ١٦٠، وما بعدها، وأثر القراءات في الأصوات والنحو العربي لعبد الصبور شاهين /٢٢٠ وما بعدها، وكلام العرب (من قضايا اللغة) لحسن ظاظا /٧ وما بعدها، ودراسة الصوت اللغوي لأحمد مختار عمر/٣١٣ وما بعدها.

(٣) يُنْظَر: اللهجات العربية نشأة وتطورا لعبد الغفار حامد هلال /٤٠٤، والقادوسي، د. عبد الرازق بن حمودة، أثر القراءات القرآنية في الصناعة المعجمية تاج العروس نموذجًا، رسالة دكتوراه بإشراف الأستاذ الدكتور رجب عبد الجواد إبراهيم– قسم اللغة العربية – كلية الآداب – جامعة حلوان، عام النشر ١٤٣١هـ – ٢٠١٠م/٣٩.

(٤) يُنْظَر: الأصوات اللغوية لإبراهيم أنيس /١٨٠، والتطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه لرمضان عبد التواب /٣٠، والتطور النحوي للغة العربية لبرجستراسر/٣٠ – ٣٥، ودراسة الصوت اللغوي لأحمد مختار عمر /٣٧٨.

(٥) يُنْظَر: القادوسي، د. عبد الرازق بن حمودة، أثر القراءات القرآنية في الصناعة المعجمية تاج العروس نموذجًا /٣٩ – ٤٠.

(٦) محمود السعران، علم اللغة /٨٢.

(٧) جهد المقل، محمد بن أبي بكر المرعشي، تح. د.غانم قدوري الحمد، ط١، دار عمار، ١٤٢٢هـ –٢٠٠١م / ١١٠.

(٨) يُنظر: البحث اللغوي عند العرب /٧٧ .

الهمزة، فهي تتَّصف بصوتها الشديد، الذي لا هو بالمجهور ولا بالمهموس، وقد عدَّها كثير من العلماء بأنَّها أشق الأصوات. ولذلك مالت بعض اللهجات العربيَّة إلى التخلّص منها، تارة بإبدالها حرف مدٍّ من جنس حركة ما قبلها، وطورًا بحذفها دون تعويض، وآونة بتسهيلها بين بين[١]. وقد أولى علماء القراءات للهمزة اهتمامًا كبيرًا، فأفردوا لها أبوابًا في كتبهم، وحثُّوا على تعلُّمها فإنَّها: تعلَّم بالشكل والمشافهة، ولبعد مخرج الهمزة، فهم لا يعدُّون القارئ قارئًا عندهم إلَّا إذا استشعر بيانها في قراءته، فينبغي للقارئ إذا همز الحرف أن يأتي بالهمزة سلسة في النطق، سهلة في الذوق من غير لكز، ولا ابتهار لها، ولا خروج بها عن حدِّها ساكنة كانت، أو متحرِّكة[٢]. ومن القضايا الصوتيَّة التي اهتمَّ بها علماء القراءات القرآنيَّة فتح أصوات الحلق وإسكانها، فأصوات الحلق في العربيَّة ستَّة: "الهمزة والهاء والعين والحاء والغين والخاء[٣]"، فتبيَّن من خلال القراءات القرآنيَّة اختلاف اللهجات العربيَّة في هذه الأصوات إسكانًا وتحريكًا بالفتح. فقد قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر "مِنَ المعَز" بفتح العين، وقرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي بإسكانها. ويعلِّل الدكتور ابراهيم أنيس ظاهرة ميل الأصوات الحلقيَّة إلى الفتح بقوله: ((وقد فطن الأقدمون من علماء اللغة إلى ميل الأصوات الحلقيَّة إلى الفتحة، وأقرَّهم على هذا المستشرقون، وقد ظهر هذا الميل بصورة أوضح في اللغة العبريَّة، أمَّا السرّ فيه فهو أنَّ كل أصوات الحلق بعد صدورها من مخرجها الحلقي تحتاج إلى اتساع مجراها بالفم، فليس هناك ما يعوق هذا المجرى في زوايا الفم، ولهذا ناسبها من أصوات اللين أكثرها اتساعًا، وتلك هي الفتحة))[٤].

ومن القضايا الصوتيَّة التي اهتمَّ بها علماء القراءات القرآنيَّة: "الإسكان والتحريك"، إذ تختلف القراءات فيما بينها في إسكان عدد من الكلمات وتحريكها، فالإسكان لهجة تميم وأسد، والتحريك لهجة أهل الحجاز. ومنها: "الاختلاف في أصوات اللين القصيرة"؛ فأصوات اللين القصيرة في اللغة العربيَّة ثلاثة، هي: "الفتحة والكسرة والضمَّة" وأخفّ هذه الأصوات الفتحة، تليها الكسرة، فالضمَّة التي هي أثقلها، وتصوّر القراءات اختلاف اللهجات العربيَّة في استعمال هذه الأصوات، وهو اختلاف قد يكون في الفتح والكسر، أو في الفتح والضمَّ، أو في الكسر والضم، أو في كسر حرف المضارعة وعدمه. والفتح من سمات لهجة أهل الحجاز، ومنهم قريش، والفتح أخفّ أصوات اللين الثلاثة؛ لذا مال إليه الحجازيون سكان البيئة المتحضِّرة، أمَّا الضمّ فهو أثقل هذه الأصوات، وقد شاع في كلام القبائل ذات البيئة البدويَّة، ومنها تميم وأسد.

ومن القضايا الصوتيَّة التي اهتمَّ بها علماء القراءات القرآنيَّة: "أصوات الضمير"، فضمير المفرد المتكلِّم "أنا" اختلف القرَّاء العشرة في إثبات الألف في "أنا" وحذفها إذا أتى بعدها همزة مضمومة أو مفتوحة أو مكسورة، فقراءة المدنيين الحجازيين مخالفة للهجة الفصحى، وهي لهجة الحجاز، فيما يتَّصل بضمير المفرد المتكلم " أنا "، وموافقة لهجة تميم. ومنها : " ياء المتكلِّم" فقد بحثوا في اختلافات القرّاء بشأنها من باب سمُّوه " مذاهبهم في ياءات القرَّاءة " رغم أنَّها تأتي

---

(١) أي بين الهمزة وبين الحرف الذي منه حركتها. يُنظر: اللسان ١/ ١٨.

(٢) يُنظر: التحديد في الإتقان والتجويد، لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني ، تحقيق: غانم قدوري الحمد، مكتبة الخلود، بغداد، دط، ١٩٨٨م /١٢٠، والدراسات الصوتيَّة الحديثة وعلم التجويد، محمد أحمد الجمل، جامعة اليرموك، إربد – الأردن /١٨.

(٣) ويزيد سيبويه الألف بعدهما على أنَّها من أقسى اصوات الحلق مخرجًا.

.

(٤) في اللهجات العربية /١٧٠.

أحيانا منصوبة المحل غير مضاف إليها، نحو : " إنِّي " ، " آتاني " ، وذلك على سبيل التجوُّز . وتعوَّدُوا كذلك أن يخصِّصوا بعد هذا الباب لمذاهبهم في " ياءات الزوائد " نحو: " إذا يسر " ، و "يوم يأتِ"، "الداع"، "دعان"، "يهدين". فيميل بعض القرّاء خاصَّة قرّاء البيئة الحجازيّة "نافع وابن كثير وأبو جعفر ومعهم أبو عمرو قارئ البصرة" إلى فتح ياء المتكلِّم في المواضع المُختلف على فتحها وإسكانها، ويميل الآخرون من قرَّاء البيئة العراقية إلى الإسكان.

ومن القضايا الصوتيَّة التي اهتمَّ بها علماء القراءات القرآنيَّة: "الإظهار والإدغام"، فالإدغام كان من خصائص اللهجات البدويَّة، في حين كان الإظهار من لهجات القبائل المتحضِّرة التي استقرَّت في الحجاز. ويعلل بعض الباحثين هذه الظاهرة تعليلًا اجتماعيًّا فيرون أنَّ القبائل البدويَّة تميل إلى السرعة في نطقها، وتلمُّس أيسر السبل فتدغم الأصوات بعضها في بعض وتسقط منها ما يمكن الاستغناء عنه دون إخلال بفهم السامع، أمَّا الحضري يعنى بتخيير لفظه، وحسن أدائه ويعمد إلى نطق كلِّ صوت دون تداخل بين الأصوات، فالمجهور يظلّ مجهورًا والمهموس يحافظ على همسه؛ لأنَّ من مظاهر التحضُّر اللباقة في القول، وحسن النطق، ومراعاة القواعد، وذلك هو ما شاع في البيئة الحجازيَّة على العموم، وفي مكَّة بصفة خاصة[١].

ومن هذه القضايا الصوتيَّة التي تناولها علماء القراءات: "الفتح والإمالة"، فالإمالة من لهجات القبائل البدويَّة في حين كان الفتح من لهجات القبائل المتحضِّرة التي استوطنت الحجاز والتي لم تمل إلّا في مواضع قليلة. ويتَّفق المحدثون من الباحثين مع القدماء في تحديد فائدة الإمالة من الناحية الصوتيَّة. يقول ابن الجزري: ((وأمَّا فائدة الإمالة فهي سهولة اللفظ، وذلك أنَ اللسان يرتفع بالفتح وينحدر بالإمالة، والانحدار أخفّ على اللسان من الارتفاع، فلهذا أمال من أمال. وأمَّا من فتح فإنَّه راعى كون الفتح أمتن أو الأصل))[٢]. ويقول الدكتور إبراهيم أنيس : " ولا شكَّ أنَّ الانتقال من الكسر إلى الفتح أو العكس يتطلَّب مجهودًا عضليًّا أكبر ممَّا لو انسجمت أصوات اللين بعضها مع بعض بأن تصبح متشابهة؛ لأن حركة الإمالة أقرب منها إلى الفتحة))[٣]. ويقول الدكتور عبده الراجحي: ((إنَّ أهل البادية يميلون في كلامهم إلى الاقتصاد في المجهود العضلي، والإمالة تحقّق لهم ذلك بما فيها من انسجام بين الأصوات))[٤].

ثانيا: علماء التجويد

كان لعلماء التجويد دور بارزٌ ومهمٌّ في درس القضايا الصوتيَّة، حيث يأتي دورهم متمِّما لما بدأ به علماء العربيَّة في درسهم لقضايا الصوت، وكان ظهور علم التجويد حدثًا مهمًّا في تاريخ الدرس الصوتيّ العربيّ، فقد استطاع علماء التجويد جمع المباحث الصوتيَّة وصياغتها في إطار جديد لتشكِّل علم أصوات العربيَّة، وكانت موضوعات علم الأصوات حاضرة في كتب علماء التجويد، وقد ألمح مكِّي بن أبي طالب في بدايات القرن الخامس الهجريّ في كتابه (الرعاية) –

---

(١) **في اللهجات العربيَّة** / ١٣٢ ، ١٣٧.

(٢) **النشر في القراءات العشر** ٣٥/٢. في اللهجات العربية : ص ٦٧

(٣) في اللهجات العربية /٦٧.

(٤) **اللهجات العربية في القراءات القرآنيَّة** /١٤١.

وهو من أقدم كتب هذا العلم – إلى تسميته بعلم مخارج الحروف، وصفاتها، وقوَّتها، وضعفها، وتقاربها، وتباعدها، وإدغام بعضها في بعض، لكنَّ مصطلح (علم التجويد) هو الذي استقرَّ عنواناً لهذا العلم. فملاحظة اللحن الخفي– الذي لا يعرفه إلاَّ المقرئ الضابط المتقن– في قراءة القرآن، ومحاولة معالجته، وتقويم خلله كانت السبب الذي يقف وراء الدراسات الصوتيَّة عند علماء التجويد، ودراسة أصوات اللغة، وتحديد صور نطقها الصحيحة. حيث رصدوا الانحرافات المتوقَّعة في نطقها، فتحقَّقت بذلك فرصة لدراسة أصوات العربيَّة دراسة شاملة، لم تتحقَّق للنحاة الذين كانت تشغلهم دراسة الأصوات لمعالجة بعض القضايا الصرفيَّة(١).

وقد تأخَّر ظهور علم التجويد بصورته المستقلَّة قرنين من الزمان عن وقت ظهور بواكير العلوم الإسلامية، فأوَّل مؤلَّف ظهر فيه كان في مطلع القرن الرابع الهجري، ولا يعني ذلك عدم وجود قضاياه، أو عدم الاعتناء بموضوعه، فعلم التجويد يُعْنَى بدراسة النظام الصوتيّ للغة العربيَّة، وهو نظام راسخ في اللغة شأنه شأن علم الصرف وعلم النحو، لكنّ موضوعاته كانت جزءًا من كتب اللغة، خاصَّة كتب النحو والصرف، على نحو ما نجد في كتاب سيبويه في الباب الأخير الذي خصَّصه لموضوع الإدغام، ودَرَسَ فيه النظام الصوتيّ للغة العربيَّة، وقد سبق وأن أشرت إليه من قبل، كما أنَّ صور النطق ووجوه الأداء كانت موضع عناية علماء قراءة القرآن، منذ أن تلقّاه الصحابة – رضي الله عنهم أجمعين– من رسول الله ﷺ. وعلم التجويد له اتصال بحقلين من حقول المعرفة العربيَّة الإسلاميَّة: الأوَّل علوم اللغة، والثاني علوم القرآن؛ لأنَّ قواعده في معظمها ذات صفة لغويَّة، ومجال تطبيقاته الآيات القرآنيَّة، وقد تمكَّن علماء القراءة في القرن الرابع الهجريِّ من إبرازه علمًا مستقلاً، له عنوان متميِّز، وله كتبه الخاصَّة به(٢).

فأصول علم التجويد وقواعده إذن كانت موجودة في الكلام العربّي، يحرص عليها القرَّاء ويعتمدون عليها في قراءتهم وإقرائهم، وإن لم تكن مدوَّنة، شأنها في ذلك شأن قواعد النحو والصرف التي استنبطها علماء العربيَّة في وقت لاحق. فعلم التجويد الذي يدرّس النظام الصوتيّ للغة، كان موضوعه تحليل ذلك النظام، واستخلاص ظواهره، ووضعها في قواعد تساعد المتعلِّم على ضبطها، وإتقانها حين يستخدم اللغة، وهم في ذلك يسيرون على خطى علماء العربيَّة الذين سبقوهم في هذا الميدان(٣).

وقد كان الجانب النطقي من أهم وسائل حفظ القرآن الكريم، فأسَّسوا قواعد لدراسة اللغة العربيَّة، فوصفوا مخارج الأصوات وصفًا دقيقًا، على الرغم من اعتمادهم على الملاحظة الذاتيَّة فقط التي لم تتعدَّ الحسّ الدقيق، والأذن الموسيقيَّة المرهفة، وتحدَّثوا عن صفات الأصوات فنشأ "علم التجويد"، فكان هذا المبدأ السبب الأبرز في اهتمام علماء العربيَّة في دراسة الأصوات، فألَّفوا فيها الكتب والمصنَّفات. ولعلَّ ارتباط دراسة الأصوات بالقرآن الكريم لاسيما تجويده وتلاوته التي تستند إلى النطق الصحيح للأصوات، وضبط مخارجها وصفاتها هو الذي يقود إلى القول إنَّ علم الأصوات قد ارتبط بعلم

---

(١) يُنظر: الدراسات الصوتيَّة عند علماء التجويد /٥٠، والدراسات الصوتيَّة الحديثة وعلم التجويد /٩.

(٢) يُنظر: الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، مكي بن طالب القيسي (٤٣٧هـ)، تحقيق د. أحمد حسن فرحات، دار الكتب العربية، دمشق، ١٣٩٣هـ . ١٩٧٣م /٢٢٥ – ٢٢٦، و جهد المقلّ /١١٠، واللقاء العلمي مع الاستاذ الدكتور غانم قدوري الحمد. غانم قدوري الحمد ١٤٢٩/٠٥/١٠ – ٢٠٠٨/٠٥/١٥ ١١:٢٠ pm.

(٣) يُنظر: الدراسات الصوتيَّة /٢٢، والدراسات الصوتيَّة الحديثة وعلم التجويد /٨.

التجويد. غير أنَّ علم التجويد من حيث هو علم "يعنى بدراسة مخارج الأصوات وصفاتها، وما يترتَّب على ذلك من أحكام عند تركيبها في الكلام المنطوق ظهر في حدود القرن الرابع الهجري، فلم يعرف كتاب أُلِّف في هذا العلم قبل ذلك القرن.

إنَّ العارفين بتجويد القرآن الكريم وعلماء قراءاته، هم الذين عنوا بالصوتيات عناية قد تفوق عناية غيرهم، وقد اعتنوا بالإدغام عناية خاصَّة، وأفاضوا فيه، يدفعهم إلى ذلك كلّه حرصهم على إتقان ترتيل كتاب الله وتجويد نطقه، وعنايتهم بالأصوات أدت إلى ظهور مراتب التجويد، وظهور مصطلحات صوتيَّة مهمَّة في وقت مبكِّر؛ كالإشمام، والروم، والاختلاس، والإمالة، والتخفيف، والتفخيم[١].

وقد كان هدف الدراسة الصوتيَّة عند علماء التجويد هدفًا صوتيًّا محضًا، في حين كان هدفها عند علماء العربيَّة لبحث مسائل صرفيَّة تختلط بالدراسة الصوتيَّة مثل: الإدغام، والإبدال، والإمالة. ولم تَخْطُ هذه الدراسة عندهم خطوة أُخرى تكمل ما بدأه ابن جنِّي؛ ليكون علم الأصوات مستقلاً عن النحو والصرف، وقد ضعفت الدراسة الصوتيَّة لدى علماء العربيَّة المتأخِّرين وكأنَّ علماء التجويد حملوا عنهم عبء هذا الموضوع، وقد استندت دراسة علماء التجويد للأصوات إلى تقسيم اللحن إلى جَلِيٍّ، وهو الخطأ في الحركات، وخَفَيٍّ وهو الخلل في توفية الحروف حقَّها من الصفات الصوتيَّة حتَّى يكون النطق عربيًّا صحيحًا خاليًا من شوائب الانحراف. ويمكن أن ندرك ذلك من قول أبي مزاحم الخاقاني في قصيدته في حسن أداء القرآن، التي تُعَدُّ أوَّل مؤلف في علم التجويد:

فأَوَّلُ علمِ الذِّكْرِ إتقانُ حِفْظِهِ ومعرفةٌ باللَّحْنِ مِن فِيك إذ يجري

فكن عارفًا باللحن كي ما تزيلَهُ فما للذي لا يَعْرِفُ اللَّحْن مِن عُذْرِ[٢]

وكان ابن مجاهد البغداديّ، وهو معاصر لأبي مزاحم، قد قسَّم اللحن إلى جليّ وخفيّ، وبنى عليّ بن جعفر السعيديّ كتابه في التجويد على هذه الفكرة، فَسَمَّاه "التنبيه على اللحن الجليّ واللحن الخفيّ". وكانت فكرة اللحن الخفيّ تقف وراء الدراسات الصوتيَّة عند علماء التجويد، فقد درسوا أصوات اللغة معتمدين على ما كتبه علماء العربيَّة، لكنَّهم كانوا يدقِّقون في صور النطق، فرصدوا الانحرافات الصوتيَّة، ممَّا سَمَّوْهُ اللحن الخفيّ، وحذّروا من مواقعته، وبيّنوا سبل الاحتراز منه، وقد تحقّقت لعلماء التجويد بذلك فرصة لدراسة أصوات العربيَّة دراسة شاملة، شملت: المخارج والصفات، والأحكام، واللحن، وعيوب النطق.

وقد وُسِمَتْ مصنفات علماء القراءة والتجويد والرسم والضبط بأنَّها أكثر الكتب احتفاءً بالمادة الصوتيَّة؛ لابتغائها الدقَّة في تأدية كلمات القرآن الكريم قراءةً وتدوينًا إلى حدٍّ جعل بعض الباحثين يذهبون إلى أنَّ هذه العلوم انفردت بالدرس

---

(١) يُنظر: البحث اللغوي عند العرب /٧٧ .

(٢) يُنظر: رائية الخاقاني، لأبي الفتح موسى بن عبيد الله الخاقاني /٢١، والوجيز في حكم تجويد الكتاب العزيز، د. محمد بن سيدي محمد محمد الأمين، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط.١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢م /٦٥.

الصوتيّ وأغنته، على أنَّها أفادت من علم النحو عامَّة، ومن كتب سيبويه خاصَّة، يقول "برغشتراسر" :كان علم الأصوات في بدايته جزءًا من النحو، ثمَّ استعاره أهل الأداء والمقرئون، وزادوا في تفصيلات كثيرة مأخوذة من القرآن الكريم[١].

تمثِّل هذه العلوم الجانب التطبيقيَّ الوظيفي لكلِّ ما سبق ذكره من دراسات صوتيَّة، وقد ظهرت في مرحلة مبكِّرة من تاريخ حضارتنا العلمي امتثالاً لقوله ﷻ : ((وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً))[٢]، وصولاً إلى الوجه الأمثل لهذه التلاوة، ووصفًا لأوجه الأداء المختلفة التي تبدّت في القراءات القرآنيَّة وانطوى عليها[٣].

وأوَّل من صنّف في فنُّ التجويد موسى بن عبيد الله ابن خاقان (ت٣٢٥هـ)، صاحب القصيدة الخاقانيَّة في التجويد، وهي تضمُّ واحدًا وخمسين بيتًا في حسن أداء القرآن الكريم، وقد شرحها الإمام الداني (ت ٤٤٤ هـ)، وهو من مكثري التصنيف في القراءات والتجويد، ولعلَّ من أهمِّها في هذا الباب رسالته "التحديد في الإتقان والتجويد" التي ضمَّنها بابًا في ذكر مخارج الحروف، وآخر في أصنافها وصفاتها، ثمَّ أتى على ذكر أحوال النون الساكنة والتنوين عند جميع حروف المعجم، وأفرد بابًا لذكر الحروف التي يلزم استعمال تجويدها [٤].

وأوَّل مؤلّف ورد فيه مصطلح "التجويد" حين تمكَّن علماء قراءة القرآن من استخلاص المباحث الصوتيَّة من كتب علماء العربيَّة ووضعها في إطار علم جديد هو كتاب "التنبيه على اللحن الجلِّي واللحن الخفيّ" لأبي الحسن علي بن جعفر السعيديّ (ت ٤١٠هـ) [٥]، وهي ذات موضوع طريف يتعلَّق بنطق الأصوات العربيَّة، ويكشف عن الانحرافات النطقيَّة الخفيَّة التي يمكن أن يقع فيها المتكلِّم لاسيما قارئ القرآن الكريم حيث يتطلَّب الأمر عناية خاصّة بأداء الأصوات.

وممَّا ينحو نحوَها كتابُ "بيان العيوب التي يجب أن يتجنَّبها القرَّاء، وإيضاح الأدوات التي بني عليها الإقراء "لابن البنَّاء (ت ٤٧١ هـ)، ولا يقتصر على بيان الانحرافات النطقيَّة في الأصوات، والعجز عن أدائها وبيان كيفيَّة علاجها، إنَّما يتجاوز ذلك إلى معالجة موضوعات أخرى تتعلَّق بكيفيَّات الأداء، وبيان العادات الذميمة المتعلِّقة بالهيئات، والجوارح مع توضيح معايب النطق الخاصَّة ببعض الأصوات، ممَّا يدخل في بابي أمراض الكلام والأصول الواجب مراعاتها عند القراءة. وأوسع ما وصلنا في علم التجويد كتاب "الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق التلاوة" لمكّي بن أبي طالب القيسيّ (ت ٤٣٧ هـ)، وقد قال فيه: ((ما علمت أنَّ أحدًا من المتقدِّمين سبقني إلى تأليف مثل هذا الكتاب، ولا إلى جمع مثل ما جمعت فيه من صفات الحروف وألقابها ومعانيها، ولا إلى ما أتَّبعت فيه كلّ حرف منها من ألفاظ كتاب الله تعالى، والتنبيه

---

(١) يُنظر: الأصوات ووظائفها، محمد منصف القماطي، منشورات جامعة الفاتح ١٩٨٦م /٨٨، والخليل بن أحمد الفراهيدي، أعماله ومنهجه /١٤٩، والبحث اللغوي عند العرب /١٠١.

(٢) المزمل من /٧٣.

(٣) يُنظر: ريادة العرب المسلمين في علم الأصوات /٤.

(٤) يُنظر: كشف الظنون ١/ ٣٥٤، وأبجد العلوم، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي (١٣٠٧هـ)، دار ابن حزم، ط. ١٤٢٣ هـ- ٢٠٠٢م ٢/ ١٨٨، وتاريخ التراث العربي ١/ ٢٩ – ٣.، وابن الجزري، شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد بن يوسف (٨٣٣هـ)، غاية النهاية في طبقات القراء، بعناية ج، برجستراسر، مكتبة المتنبي، القاهرة ١/ ٥٠٣، وتجويد التلاوة للداني ورقة ٩٨/ أ.

(٥) نُشِرَ أولاً في مجلة المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٨٥ ، ثم في كتاب (رسالتان في تجويد القرآن) ، في عمان سنة ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠ م.

على تجويد لفظه، والتحفّظ به عند تلاوته))[١]، وقد ذكر لحروف العربيَّة أربعة وأربعين لقبًا، بيّنها وشرحها، وكل واحدٍ من هذه الألقاب يدلُّ على معنى وفائدة في الحرف ليسا في غيره ممَّا ليس له ذلك اللقب[٢]. ومن كتب علم التجويد التي وصلتنا في هذا كتاب " التحديد في الإتقان والتجويد" لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني[٣].

وتتابعت بعد ذلك رسائل التجويد تقفو أثر ما تقدَّم، ولا نكاد نجد فيها جديدًا يذكر. ولعلَّ أبرزها قصيدة ابن الجزري (ت ٨٣٣ هـ) "المقدّمة في ما على قارئ القرآن أن يَعْلَمَه" المعروفة بـ"المقدّمة الجزرية" وهي أرجوزة في ثمانية ومئة بيت. وقد انشغل بها المعلِّمون والمتعلِّمون للتلاوة. تضمَّنت موضوعات التجويد، والوقف والابتداء، ورسم المصحف، ولها شروح كثيرة، منها: "الحواشي المفهمة في شرح المقدّمة" لأحمد بن الجزري (ت ٨٢٧ هـ) ابن الناظم، و"الدقائق المحكمة في شرح المقدّمة الجزرية" لزكريا بن محمد الأنصاري (ت ٩٢٦ هـ)، ولابن الجزري كتاب "التمهيد في علم التجويد، تناول فيه كل مسائل التجويد، وضم إليها بابًا في الوقف والابتداء، وآخر في معرفة الظاء وتمييزها من الضاد.

وقد كثر التأليف في علم التجويد، لكن مؤلفات كل عصر لها خصائصها في المنهج والموضوعات، والملاحظ أن صفة الحيويَّة والابتكار التي اتسمت بها مؤلفات القرن الخامس الهجري تكاد تختفي في العصور اللاحقة، لتحلّ محلَّها صفة الجمع والتلخيص والاختصار . وهناك مؤلَّفات كثيرة سبقت المقدّمة الجزريّة، ومؤلفات أُخرى جاءت بعدها، وأرى أن من بين تلك المؤلّفات ما يستحقّ أن يُشار إليه؛ لأنَّه خرج عن فلك المقدّمة الجزريّة، وأتى بأفكار علميّة متميّزة، منها كتاب "جهد المقلّ" لمحمَّد المرعشي الملقب ساجقلي زاده (ت ١١٥٠هـ)، وشرحه "بيان جهد المقلّ". وكذلك كتاب "نهاية القول المفيد في علم التجويد" لمحمّد مكّي نصر كتاب حديث[٤]. وغلب على مؤلفات علم التجويد في العصر الحديث الإيجاز والتركيز، لكنّ حجم تلك المؤلفات أخذ بالازدياد حتى بلغ بعضها مئات الصفحات، وذلك بسبب التتبع والاستقصاء للمسائل، والاستعانة بالرسوم، والإكثار من الأمثلة التطبيقيّة، والتمارين العمليّة ، لكنّ السمة الغالبة على معظمها هو نقل عبارات الكتب القديمة، كما هي، وقد يكون فيها ما يحتاج إلى المراجعة أو المناقشة. ويرجع ذلك في معظمه إلى إهمال المؤلفين المحدثين دراسة (علم الأصوات اللغوية)، وأدّى ذلك إلى عدم التنبه إلى حاجة تلك المسائل للمراجعة.

وتكاد تنحصر موضوعات علم التجويد في ثلاثة أبواب، هي المخارج، والصفات، والأحكام، وكان الحسن بن قاسم المرادي (ت ٧٤٩هـ) قد ذكرها بقوله: إنَّ تجويد القراءة يتوقّف على أربعة أمور: معرفة مخارج الحروف، ومعرفة صفاتها، ومعرفة ما يتجدّد لها بسبب التركيب من الأحكام، وذكر رابعا هو: رياضة اللسان بذلك وكثرة التكرار[٥].

---

(١) الرعاية لتجويد القراءة /٤٢.

(٢) يُنظر: ريادة العرب المسلمين في علم الأصوات/٤.

(٣) ينظر : غاية النهاية ٣٧٨/٢ و ٣٣٧

(٤) مطبوع بمراجعة الشيخ علي محمد الضباع ، بمطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر سنة ١٣٤٩هـ.

(٥) المفيد /٣٩، وشرح الواضحة /٣٠.

إنَّ من يقف على إسهامات العلماء العرب المسلمين في علم الأصوات يعلم علمًا لا يداخله شكّ أنَّهم سبقوا إلى كثيرٍ من دقائقه وحقائقه، وأرسوا كثيرًا من أحكامه وقوانينه، كانوا بحق من روّاده وأساطينه[١]. وكلام المولى عصام الدين فيه دليل من أبرز الأمور المؤكِّدة على ذلك، وهو في غاية الوضوح والأهمية من نواحٍ عدَّة، منها:

– إطلاقه مصطلح علم المخارج والصفات على علم التجويد وعدَّهما علمًا واحدًا، وذكر المقدّمة الجزريّة، مثالاً لكتب علم المخارج والصفات.

– إشارته إلى علاقة علم المخارج والصفات بالعلوم الأخرى، حيث قال: إنه يستمد من العلم الطبيعيّ، وعلم التشريح، وقد فسَّر العلم الطبيعيّ بأنَّه علم باحث عن أحوال الأجسام الطبيعيّة بأنواعها[٢]. وذكر أنَّ علم التشريح من فروع علم الطب، وقال عنه: أنَّه علم باحث عن كيفيّة أجزاء البدن وتركيبها، من العروق والأعصاب، والغضاريف، والعظام وغير ذلك من أحوال كل عضو[٣].

ألا يكفي هذا للقول بأصالة علم الأصوات مصطلحًا وموضوعًا، بل ومنهجًا أيضًا، فإنَّ علم الأصوات اليوم يعتمد في جانب منه على فيزياء الصوت، وهو ما سمَّاه المولى عصام الدين بالعلم الطبيعيّ، كما يعتمد على علم التشريح في الكشف على أعضاء آلة النطق وكيفيَّة عملها. إذا فإنَّ للعرب قدمًا ثابتة وباعًا طويلة في الدراسات الصوتيَّة، وأنَّ لهم فضل السبق في الوصول إلى نتائج، وحقائق علمية صوتيَّة في غاية الدقَّة. وهناك من العلماء والمستشرقين الأجانب، بل من الباحثين العرب المحدثين من يقول أنَّ الصوتيات العربيَّة متأثِّرة ببحوث الأمم السابقة على العرب كالهنود واليونان، وعنهم نقلوها، ولعلَّ ما ساعد على هذا القول إهمال المسلمين للدراسات الصوتيَّة، وكون المستشرقين أوَّل من تحدَّثوا عنها في عصر النهضة. وردَّ هذا القول مجموعة من العلماء وعلى رأسهم "بروكلمان "فقد رفض هذا الرأي القائل بتأثُّر العرب بالدراسات النحويَّة والصوتيَّة للحضارات القديمة، وعدَّ علم الأصوات عند العرب ظاهرة قائمة بذاتها. وممَّن تولَّى الردَّ كذلك على الآخذين بهذا الرأي الدكتور "كمال بشر"[٤]، وهو أحد العلماء المختصِّين؛ حيث قال: في رأينا أنَّ دراسة العرب لأصوات لغتهم إنَّما هي دراسة أصيلة، ليست منقولة في منهجها أو طريق التفكير فيها عن غيرهم من الأمم، والقول بأنَّها ترجع إلى أعمال الهنود أو اليونان في دراساتهم الصوتيَّة قول تعوزه الأدلَّة العلميَّة التي تستطيع أن تؤكِّد هذا الزعم أو تنفيه، على أنَّ النظر الدقيق في جملة ما طلع علينا به علماء العربيَّة في مجال الأصوات اللغويَّة يحملنا على الجزم بأنَّ هؤلاء العلماء كانوا يصدرون عن عقليتهم الخاصَّة، وثقافتهم العربيَّة ثمَّ أتى بدليل على صدق قوله يتصل بمنهجهم في الدراسة الصوتيَّة، فرأى أنَّ هذه الدراسة تقوم على أساس نطقي، كما عند الغربيين، يعنى بالخواص النطقية للأصوات ووظائف جهاز النطق وحركات أعضائه عند إخراج الأصوات، وهذا مخالف لما سلكه اليونان، إذ اعتمد هؤلاء أولاً على الخواص السمعيَّة للأصوات، وإذا كان منهج العرب يشابه منهج الهنود عامَّة، فإنَّ فيه اختلافاتٍ كثيرةٍ في التفصيلات، وهو

---

(١) يُنظر: ريادة العرب المسلمين في علم الأصوات/٥.

(٢) يُنظر: مفتاح السعادة ٣٠١/١.

(٣) يُنظر: مفتاح السعادة ٣٢٣/١.

(٤) يُنظر: كمال بشر، علم الأصوات ١٢٣، ١٢٤، ١٢٩.

منهج وصفيّ يعنى بدراسة الظاهرة اللغويَّة في معزل عن تطوراتها التاريخيَّة، ويخلو من الافتراضات العقليَّة والمتاهات الفلسفيَّة، ويقوم على أساس من أهمّ أسس البحث الصوتيّ اليوم، وهو الملاحظة الذاتيَّة. لذا فليس من الموضوعيَّة، ولا من العدل والإنصاف، نسبة علم الأصوات نشأة، وموضوعًا إلى غير علمائنا القدماء، وإذا تقدَّم المحدثون في دراسة هذا العلم؛ فإنَّه لا يعني أنَّه من وضعهم، ولا ينبغي أن نقطع الصلة بين علم أصوات العربيَّة والتجويد. كما ينبغي عدم قطع صلتهما بماضي تراثنا العلميّ، الذي ينبغي أن نحرص على إحيائه والبناء عليه[١].

إنَّ البحوث الصوتيَّة التي سبق إليها علماء العربيَّة أثارت دهشة المستشرقين، وأفاد منها الأوروبيّون في صوتياتهم الدقيقة التي اعتمدت أجهزة التشريح، وقياس الأصوات في ضوء المكتشفات العلميَّة، وقد أثبتت جملة من الحقائق الصوتيَّة التي توصَّل إليها الأوائل عفويًّا، في حسّ صوتيٍّ بتجربته الفطريَّة، وبعد أن تأصَّلت لديهم إلى درجة النضج، قدّمت منهجًا رصينًا رسّخ فيه المحدثون حيثيات البحث الصّوتيّ الجديد في المفردات والعرض والأسلوب والنتائج على قواعد علميَّة سليمة.

يشير بعض المؤرِّخين لتاريخ الدراسة الصوتيَّة اللُّغويَّة إلى أنَّ الدراسة الصوتيَّة العربيَّة سبقت غيرها من الدراسات في تثبيت حقائق هذه الدراسة على أسس علميَّة. وقد كانت نشأة هذه الدراسة عربيَّة خالصة ارتبطت بقراءة القرآن الكريم، شأنها في ذلك شأن علوم اللغة العربيَّة الأخرى. وتعتبر الدراسات الصوتيَّة من أصل العلوم عند العرب؛ لأنَّها تتَّصل اتصالاً مباشرًا بتلاوة القرآن الكريم، وفهم كلماته وتراكيبه ومعانيه. وقد بدأت الدراسة الصوتيَّة عند العرب وصفيَّة تعتمد على الملاحظة الذاتيَّة مضافًا إليها فطنة الدارس وثقافته وأمانته العلميَّة.

ومع كلَّ هذه الجهود الصوتيَّة التي درسها علماؤنا فقد، زعم بعض المستشرقين أنَّ العلماء العرب قد اقتبسوا علم الأصوات من الهند. ومن ينظر إلى مذهب العرب في دراسة الأصوات يرى أنَّه يخالف مذهب الهند في أمور مهمّة، فقد اعتمدت الأبجديَّة الهنديَّة على المقاطع من نحو: (يا، خا، حا)، أمَّا العربيَّة فاعتمادها على الأصوات المفردة مثل: (ب، ت، ث)، فالعرب قد استحدثوا هذا العلم من مداركهم الخاصَّة بأنفسهم، ولم يقتبسوه من غيرهم، لأنَّ الباعث الذي دفع العرب لدراسة الأصوات وعلوم العربيَّة الأخرى هو القرآن الكريم؛ لأنَّ الشعوب التي دخلت في الإسلام في القرنين الأوَّلين من قرون الإسلام، كانت غايتهم أن يحسِّنوا قراءة المصحف الشريف، وينطقوا أصواته نطقًا عربيًّا خالصًا، فلم يجدوا سبيلاً إلى ذلك إلاَّ بعد الاطلاع على أصوات اللغة العربيَّة وقواعدها. لذلك وضع علماء العربيَّة تلك القواعد لتعليم هؤلاء الداخلين في الدين الإسلامي.

وفي المقابل لا يوجد دليل على أنَّ الخليل قد أخذ علمه من غير البيئة العربيَّة؛ لأنَّ البيئة التي عاش فيها الخليل تحتِّم عليه ذلك، فالقرآن الكريم يستند إلى الجانب النطقي أكثر من الجانب الإملائي، ناهيك عن أنَّ المصطلحات التي أستعملها الخليل مصطلحات عربيَّة خالصة من نحو الشديد والرخو، والذلاقة والإصمات، يضاف إلى ذلك أنَّ الخليل لم يكن يعرف لغات أجنبيَّة، فكيف يتسنَّى له معرفة تراث الأمم الأخرى، لا سيما أنَّ الترجمة من تلك اللغات لم يقف عليها

---

(١) يُنظر: اللقاء العلمي .د .غانم قدوري الحمد.

الخليل. فجاءت المادة الصوتيَّة عند العرب على وفق منهج عربي خالص، فإذا كان المنهج هو الطريقة التي يتَّخذها المؤلف ليسلك فيه موضوعات تفكيره أو دراسته، وهو الخطَّة التي يتبعها المؤلف في علاج المشكلة التي اختارها موضوعا له، وقيامها على أساس من المنطق أو من الاستقراء. أو منهما معًا، فإنَّه في الوقت نفسه الذي يرتِّب المادة موضع الدراسة، وهو نسق منطقي يجعل المقدّمات أولاً، تليها النتائج. أو نسق موضوعي يجعل الموضوعات العامَّة أولاً، التي لها تأثيرها فيما بعدها، ثمَّ يعقب على ذلك بذكر المسائل الخاصَّة أو الفرعيَّة.

فالعلماء العرب قد خلَّفوا لنا تراثًا صوتيًّا موزَّعًا على علوم العربيَّة المتعدِّدة من نحو وصرف وبلاغة ومعجم. فضلاً عن توزعها في الظواهر اللغويَّة التي تضمُّها هذه العلوم. فدراسة المنهج الصوتيّ عندهم والخوض فيه يحاط بكثير من المصاعب بحيث لا يمكن القطع به بسرعة كبيرة، وإنَّما معرفة علوم العربيَّة الرئيسة معرفة دقيقة من حيث منهج العلماء العرب في دراستها، ومن ثمَّ الكشف عن الجوانب الصوتيَّة فيها. فالعلماء العرب قد درسوا كلّ علم وكأنَّه منفصل، أو مستقل عن الآخر، ومن ثمَّ توزَّعت الآراء الصوتيَّة بين هذه العلوم بعضها مع بعض، والجانب الصوتيّ يدخل في كلِّ علم من هذه العلوم. بحيث لا يمكن الاستغناء عنه وجعله أشتاتًا متفرِّقة بين علوم العربيَّة، يمكن من خلالها تلمُّس الجانب المنهجيّ في دراسة الأصوات. وقد ألقى المستشرق الألماني "أرتور شاده" محاضرة في الجامعة المصريَّة القديمة، عنوانها: علم الأصوات عند سيبويه وعندنا، أبان فيها عن جهد إمام العربيَّة سيبويه في هذا العلم الجليل[١]. وممَّا يؤسف له أنَّ بعض المحدثين من أساتذة العربيَّة الذين ابتعثوا إلى الخارج، قد يتنكَّرون لجهود أبناء أمتهم، ويردُّون كلّ فضل في هذا العلم إلى المستشرقين الذين درسوا على أيديهم.

الخاتمة:

في ختام هذا البحث، وبعد هذا التطواف توصَّل الباحث إلى النتائج آلاتية:

- أنَّ العلماء العرب سبقوا الأصواتيين المحدثين في تصنيف الأصوات، إذْ أشاروا إلى الأصوات الأسنانيَّة والحنكيَّة واللهويَّة واللثويَّة من الصوامت.
- أنَّ علم الأصوات علمٌ قديمٌ عند العرب؛ حيث ظهرت بداياته في القرن الثاني للهجرة على يد الخليل بن أحمد الفراهيدي.
- أنَّ مصطلح علم الأصوات مصطلح عربيّ أصيل، وقد استُعْمِل مدلولاته في الاصطلاح الصوتي بكلِّ دقَّة عند العرب.
- أنَّ الخليل هو صاحب أوَّل دراسة صوتيَّة منهجيَّة في تاريخ الفكر الصوتيّ عند العرب.
- أنّ الأوائل من علماء العربيَّة قد مهَّدوا بين يدي الغربيين جادَّة البحث المنظَّم في استكناه الصوت اللغوي، وأسهموا إسهامًا حقيقيًّا في إرساء ركائزه الأولى.

---

(١) يُنظر: بحث بعنوان : علم الأصوات عند سيبويه للمستشرق الألماني أرتور شاده، محاضرة برؤية استشراقية ومراجعة حديثة، الباحث: أ. د . صبيح حمود التميمي، مجلة آداب الرافدين، كلية الآداب بجامعة الموصل، العراق، العدد ٥٨، سنة ٢٠١٠م، تاريخ قبول البحث : ٢٠١٠/١/١٣م.

- أنَّ ابن جنِّي نهض بأعباء الصوت اللغويّ، فقد تمحَّض لقضيَّة الأصوات في كتابه (سرّ صناعة الإعراب) ممَّا جعله في عداد المبدعين، وخطَّط لموضوعات الصوت إذْ عُدَّ فيه من المؤصِّلين.
- أنَّ ابن جنِّي أوَّل من استخدم مصطلح "الصويت"، وهو أقرب ما يكون إلى مصطلح "الوحدة الصوتية".
- إنَّ علم التجويد أصل علم الصوتيات.
- أنَّ البحوث الصوتيَّة التي سبق إليها علماء العربيَّة أثارت دهشة المستشرقين، وأفاد منها الغربيُّون في صوتياتهم الدقيقة التي اعتمدت أجهزة التشريح، وقياس الأصوات في ضوء المكتشفات العلميَّة.
- أنَّ العلماء العرب قد خلَّفوا لنا تراثًا صوتيًّا موزَّعًا على علوم العربيَّة المتعدِّدة من نحو، وصرف، وبلاغة، ومعجم، وتجويد، وقراءات.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.
٢. ابن الجزري، شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد بن يوسف (٨٣٣هـ)، غاية النهاية في طبقات القراء، بعناية ج، برجستراسر، مكتبة المتنبي، القاهرة.
٣. ابن الجزري، شمس الدين أبو الخير، محمد بن محمد بن يوسف (٨٣٣هـ)، النشر في القراءات العشر؛ تصحيح: علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت.
٤. ابن جنِّي، أبو الفتح عثمان الموصلي (ت: ٣٩٢هـ)، الخصائص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٤، د.ت.
٥. ابن جني، أبو الفتح عثمان الموصلي ت. ٣٩٢هـ، سرّ صناعة الإعراب، دار الكتب العلمية بيروت– لبنان، ط. ١٤٢١هـ– ٢٠٠٠م.
٦. ابن سينا، الحسين بن عبد الله (٤٢٨هـ)، أسباب حدوث الحروف، تحقيق محمد حسان الطيان ويحيى مير علم، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ط. ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.
٧. ابن سينا، الحسين بن عبد الله، أبو علي، شرف الملك: الفيلسوف الرئيس (٤٢٨هـ)، الشفاء، الطبيعيات–الحيوان، ط. ١٩١٧م.
٨. ابن سينا، الحسين بن عبد الله، أبو علي، شرف الملك: الفيلسوف الرئيس (٤٢٨هـ)، القانون في الطب، تحقيق د. إدوار القش، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٨هـ . ١٩٨٧م.
٩. أبو الحسن، د. منال ، الصوتيات علم وفن تدريب وممارسة، القاهرة، دار النشر للجامعات، ط. ٢٠١٤م.
١٠. الأمين، د. محمد بن سيدي محمد محمد، الوجيز في حكم تجويد الكتاب العزيز، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط.١٤٢٢ هـ – ٢٠٠٢م.
١١. أنيس، إبراهيم، الأصوات اللغويَّة، دار النهضة العربيَّ، مصر، ١٩٦١م.

١٢.برجشتراسر، التطوُّر النحوي للغة العربيَّة، أخرجه د.رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ودار الرفاعي بالرياض ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م.
١٣.بركة، د. بسام، علم الأصوات العام: أصوات اللغة العربية، مركز الإنماء القومي، بيروت، ١٩٨٨م.
١٤.بشر، د. كمال محمد، علم اللغة العام. الأصوات، دار المعارف بمصر، ١٩٧٥م.
١٥.الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، (ت: ٢٥٥هـ)، البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣ هـ، ج٣.
١٦.الجمل، محمد أحمد، الدراسات الصوتيَّة الحديثة وعلم التجويد، جامعة اليرموك، إربد – الأردن.
١٧.الجندي، د. يحيى محمود، المدارس المعجمية والمعاجم العربية بين القديم والحديث: ط٥. ١٤٢٨هـ.
١٨.حركات، مصطفى، الصوتيات والفونولوجيا، دار الآفاق، الجزائر، د.ت.
١٩.حسان، د.تمام، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، ط٢، دار الثقافة، الدار البيضاء ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م.
٢٠.الحلبي، أبو الطيب اللغوي، عبد الواحد بن علي، مراتب النحويين: تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر، سنة ١٩٧٤م.
٢١.الحمد، غانم قدوري، الدراسات الصوتيَّة عند علماء التجويد، وزارة الأوقاف العراقيَّة، بغداد، ط. ١٩٨٦م.
٢٢.الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي، معجم الأدباء "إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب"، (٦٢٦هـ)، تح: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط. ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م.
٢٣.الخفاجي، عبد الله بن سنان، سرّ الفصاحة، (٤٦٦هـ)، تحقيق علي فوده، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٥٠هـ . ١٩٣٢م.
٢٤.خليفة، حاجي. مصطفى بن عبدالله الرومي (١٠١٧هـ)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون؛ دار الفكر، بيروت، ١٤٠٢هـ . ١٩٨٢م.
٢٥.الخولي، محمد علي، معجم علم اللغة النظري، مكتبة لبنان، ط، ١٩٨٢م.
٢٦.الداني، أبو عمرو عثمان بن سعيد، التحديد في الإتقان والتجويد، تحقيق: غانم قدوري الحمد، مكتبة الخلود، بغداد، دط، ١٩٨٨م.
٢٧.دي سوسور، فردينان، لغوي سويسري، علم اللغة العام. ترجمة د. يوئيك، يوسف عزيز، آفاق عربية، بغداد، ١٩٨٥م.
٢٨.الزركلي، خير الدين (١٣٩٦هـ)، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٩٨٠م.
٢٩.سزكين، د. فؤاد، تاريخ التراث العربي؛ ترجمة د. محمود حجازي ود. فهمي أبوالفضل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٧م.
٣٠.السعران، د. محمد ، علم اللغة، مقدّمة للقارئ العربي، دار النهضة العربية، بيروت.

٣١. السكاكي، أبو يعقوب، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي الخوارزمي الحنفي (٦٢٦هـ)، مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط٢، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م.
٣٢. سلّوم، تامر، نظريَّة اللغة والجمال في النقد العربي، دار حوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط١. ١٩٨٣م.
٣٣. سيبويه، أبو بشر، عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، (١٨٠هـ)، الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣. ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨م.
٣٤. السيرافي، أبو سعيد الحسن بن عبد الله بن المرزبان (ت: ٣٦٨هـ)،أخبار النحويين البصريين، تح: طه محمد الزيني، ومحمد عبد المنعم خفاجي – المدرسين بالأزهر الشريف، نشر: مصطفى البابي الحلبي، ط. ١٣٧٣ هـ – ١٩٦٦م.
٣٥. شاهين، د. عبد الصبور، أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي، مكتبة الخانجي القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ . ١٩٨٧م /١٨٢ – ٢١٩.
٣٦. شاهين، عبد الصبور، دراسة علم الأصوات لمالمبرج مكتبة الشباب | القاهرة | ١٩٨٥م.
٣٧. الصغير، محمد حسين ، الصوت اللغويّ في القرآن، دار المؤرخ العربي، ط.٢٠٠٠م.
٣٨. العشيري، د. محمد رياض ، التصوّر اللغويّ عند الإسماعيليّة، دراسة في كتاب الزينة للرازي (٣٢٢هـ)، منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٨٥م.
٣٩. عكاشة، د. محمود ، أصوات اللغة، الأكاديميَّة الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، مكتبة دار المعرفة، ط٢. ٢٠٠٧م.
٤٠. عمر، تمام حسان ، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، ط٥. ١٤٢٧هـ–٢٠٠٦م.
٤١. عمر، د. أحمد مختار ، البحث اللغوي عند العرب، عالم الكتب، القاهرة، ط٤، ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م.
٤٢. غازي، د. يوسف، مدخل إلى الألسنية، منشورات العالم العربيَّة الجامعيَّة، دمشق، ط١، ١٩٨٥م.
٤٣. الفارسيّ، أبو علي، الحسن بن أحمد بن عبد الغفار (ت ٣٧٧هـ)، التعليقة على كتاب سيبويه، تح: د. عوض بن حمد القوزي (الأستاذ المشارك بكلية الآداب)، ط.١٤١٠هـ – ١٩٩٠م، ج٦.
٤٤. الفراهيدي، الخليل بن أحمد (١٧٥هـ)، العين، تحقيق د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، دار الهجرة، إيران . قم، ط، ١٤٠٥هـ.
٤٥. القادوسي، د. عبد الرازق بن حمودة، أثر القراءات القرآنية في الصناعة المعجمية تاج العروس نموذجًا، رسالة دكتوراه بإشراف الأستاذ الدكتور رجب عبد الجواد إبراهيم– قسم اللغة العربية – كلية الآداب – جامعة حلوان، عام النشر ١٤٣١هـ – ٢٠١٠م.
٤٦. القماطي، محمد منصف، الأصوات ووظائفها، منشورات جامعة الفاتح ١٩٨٦م.
٤٧. القِنَّوجي، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري (١٣٠٧هـ)،أبجد العلوم، دار ابن حزم، ط. ١٤٢٣ هـ– ٢٠٠٢م.

٤٨. القيسي، مكي بن طالب (٤٣٧هـ)، الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، تحقيق د. أحمد حسن فرحات، دار الكتب العربية، دمشق، ١٣٩٣هـ .
٤٩. كانتينو، جان، دروس في علم الأصوات العربيَّة، تر. صالح القرمادي، ومركز الدراسات والبحوث الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة، تونس، ط. ١٩٦٦م.
٥٠. مالمبرج، برتيل، العالم الأصواتي الفرنسي علم الأصوات تعريب: د. عبد الصبور شاهين، نشر مكتبة الشباب، القاهرة ، ١٩٨٥م.
٥١. المخزومي، د. مهدي، الخليل بن أحمد الفراهيدي أعماله ومنهجه، دار الرائد العربي، بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ . ١٩٨٦م.
٥٢. المرعشي، محمد بن أبي بكر، جهد المقل، تح. د.سالم قدوري الحمد، ط١، دار عمار، ١٤٢٢هـ -٢٠٠١م.
٥٣. المطلبي، د. غالب فاضل ، دراسة في أصوات المدِّ العربيَّة، وزارة الثقافة والإعلام، العرق، ١٩٨٤م.
٥٤. الناصر، د. عبدالمنعم، شرح صوتيات سيبويه، دراسة حديثة في النظام الصوتي للعربيَّة من خلال نصوص كتاب سيبويه، دار الكتب العلميَّة.

الرسائل العلميَّة:

- الطيان، محمد حسان، المعجم العربي دراسة إحصائية صوتية مخبرية، رسالة ماجستير، جامعة دمشق . ١٩٨٤م.

مقال:

١. شاده، أرتور، علم الأصوات عند سيبويه للمستشرق الألمانيمحاضرة برؤية استشراقية ومراجعة حديثة، الباحث: أ. د . صبيح حمود التميمي، مجلة آداب الرافدين، كلية الآداب بجامعة الموصل، العراق، العدد ٥٨، سنة ٢٠١٠م.
٢. فليش، لهنري ، التفكير الصوتيّ عند العرب في ضوء سرِّ صناعة الإعراب لابن جنِّي، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة الجزء "٢٣" سنة ١٩٦٨م.
٣. الهليس، د. يوسف ، علم الصوتيات الموجي والسمعي عند علماء المسلمين القدماء، مقالة، في المجلة العربية للدراسات اللغوية المجلد الثالث العدد الثاني ١٩٨٥م.

نشرة أو إحصائيَّة:

- النعيمي، د. حسام، الدراسات اللهجيَّة والصوتيَّة عند ابن جنِّي، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، العراق، ١٩٨٠م، سلسلة دراسة ٢٣٤.

وقائع المؤتمر:

- الطيان، محمد حسان، ريادة العرب المسلمين في علم الأصوات، بحث شارك به الكاتب في المؤتمر الثامن والعشرين لتاريخ العلوم عند العرب الذي انعقد في معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب (٢٥-٢٧ حزيران ٢٠٠٧م).